

عصمة الحوراء زينب عليها السلام

محاضرات اسلامية لسماحة
السيد عادل العلوي

حررها وعلق عليها
فضيلة الشيخ على الفتلاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بآلائه، وحبانا بنعمه، ووفَّقنا لخدمة خلقه،
 حمداً يليق بشأنه، ونثني عليه شاكرين ونمجِّده مادحين، وأنى يبلغ المادح
 مدحه والحامد ثناءه، والصلاة على الشجرة الزيتون المباركة وعلى فرعها
 ولقاحها وثمرها وورقها - أعني بذلك محمداً وآله الطاهرين - وسلِّم تسليماً كثيراً.
 لقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ : «زكاة العلم تعليمه من
 لا يعلمه».

وتطبيقاً لهذا الحديث ولكي يكون المرء مصداقاً للمعلِّم والمتعلِّم، سارع
 مكتب آية الله العظمى المرجع الديني الكبير الشيخ ميرزا جواد التبريزي (دام ظلّه
 العالي) من خلال الإخوة القائمين عليه سماحة الشيخ عبَّاس الهزَّاع وسماحة
 الشيخ محمَّد أبي سعود (حفظهما الله تعالى) إلى اغتنام حضور علم من أعلام
 الحوزة العلمية، وفرع من فروع الدوحة المحمَّدية، وعنوان من عناوين الولاية
 العلوية، سماحة العلامة الحجَّة سيِّدنا الفقيه الأستاذ الأجلَّ السيِّد عادل العلوي
 (حفظه الله تعالى)، والتمسوا منه أن يفيض على إخوته في بلاد الشام - وفي رحلته

الشامية^١ - ممّا رزقه الله تعالى من العلم والمعرفة.

وكما هو ديدن هذا العالم العامل، لم يتأخّر في إجابة هذه الدعوة، فاتفقت الكلمة أن يكون الكلام عن مقام صاحبة المكان الشريف فخر المخدّرات وسليلة الطهر والنقاء، السيّدة زينب الكبرى، وكانت الأيام المباركة أيام ولادتها الميمونة، فراح خدّمة الدين والمذهب الإخوة القائمين على مكتب آية الله العظمى التبريزي (دام ظلّه العالی) بنشر الخبر وتهيئة المكان اللائق بهذه الأبحاث وتقديم كلّ ما يخدم المحاضر والحاضرين، وليس هذا بعجيب، حيث إنّه ديدن المخلصين الذين لا همّ لهم إلاّ نشر علوم أهل البيت عليهم السلام من إحقاق الحقّ ودحض الباطل ومحاربة أهل البدع والضلالات.

ولكي يكتمل العمل وتعمّ الفائدة جميع من له رغبة بتوطيد العلاقة بالسيّدة العظيمة زينب وبأهلها الأطهار سارع المكتب أيضاً بنشر هذا العلم وإخراجه إلى أيدي القراء المحبّين لعلوم أهل البيت عليهم السلام، والذين يطلبون الحقّ والحقيقة، فصاروا بذلك مصداقاً آخراً لحديث آخر عن النبيّ صلى الله عليه وآله : «ما تصدّق الناس بصدقة مثل علم ينشر»، ولكي ينشر هذا العلم ويصل إلى أيدي محبّيه، أحببت أن تحرّر هذه المحاضرات، فاستأذنت سيّدنا الأستاذ بكتابة هذا العلم النافع وإخراجه بصورة ميسّرة ولغة سهلة ينتفع منها عامّة المؤمنين، فاستجاب لي

^١ طالت الرحلة شهرين متتابعين، وألقى الأستاذ أكثر من خمسة وخمسين محاضرة إسلامية في أماكن مختلفة من مكاتب المراجع والحسينيات والمساجد. وقد تصدّى لضبط المحاضرات وتحريرها جماعة ممّن حضر عند السيّد الأستاذ دروساً في حوزة قم العلمية المباركة.

شاكراً لطفه إذ جعلني بذلك من العاملين لخدمة أهل البيت وشيعتهم، فبادرت إلى كتابة هذه المحاضرات لكي تكون أثراً جميلاً من آثار أهل العلم والمعرفة، وهذا ما حثّ عليه الحديث الشريف عن النبي ﷺ : «قيدوا العلم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته»، فتمت كتابة هذه المحاضرات ووضعت عليها تعليقاً يبين مراد المحاضر بنحو سهل على كل قارئ فهمه، متجنباً الإسهاب والتعقيد، علماً أنّ هذه المحاضرات أُلقيت في سنة ١٤٢١ هـ أول ربيع الثاني، فنسأل الله تعالى أن يثيبنا على عملنا هذا، إنه جوادٌ كريم.

الشيخ على الفتلاوي

سوريا - دمشق - السيدة زينب عليها السلام

(المحاضرة الأولى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد المصطفى وآله الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم ومنكري فضائلهم من الآن إلى قيام يوم الدين.

أمّا بعد:

فإنّ الحديث ليحلّو عن مقام الحوراء زينب عليها السلام، سيّما ونحن في رحابها الواسع وفي أيام ولادتها المباركة، وإنّما اخترت هذا الموضع لما للمكان من أثر، حيث إنّي حللتُ ضيفاً عليها، فوحياً من مكانها تاقت النفس للحديث عنها، ولما لزيارتها من إشعاعٍ روحى ينعكس على كلّ من دخل إليها مستعداً بقلبه وعقله لتلقّى هذا الإشعاع، وكلامى عنها مبيناً عظمتها، لأنّها سلام الله عليها باب أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وأمير المؤمنين عليه السلام باب رسول الله صلّى الله عليه وآله كما ورد فى الحديث الشريف عن النبي صلّى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^١، كما أنّه عليه السلام

^١ الوسائل ١٧: ٢٤٢، تاريخ بغداد ١١: ٢٠٤ جاء الحديث فيه عن ابن عباس، قال: «قال رسول الله (صلى الله عليه

وآله): أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها فمن أراد الحكمة فليأت من الباب»، وفي مستدرک الصحيحين ٣: ١٢٦ عن

باب الله الذي منه يؤتى، كذلك الرسول الأكرم ﷺ باب الله تعالى كما ورد في الزيارة الشريفة: «أنتم باب الله الذي منه يؤتى»^١، فتكون زينب الكبرى عليها السلام باب الله تعالى لو حذفنا الوسائط^٢، فإذن من له حاجة عند أمير المؤمنين عليه السلام لا بد أن يدخل إليه من الباب المقصود، ألا وهو زينب عليها السلام، وهذا المعنى - كون زينب باب أمير المؤمنين عليه السلام - حدثني به سيدنا الأستاذ آية الله العظمى النجفي المرعشي قلندر، كما هو عند أهل السير والسلوك إلى الله تعالى. فنحن إذن على باب من أبواب الله تعالى وفي رحاب السيدة الحوراء زينب الكبرى عليها السلام، وسنتطرق إلى الحديث عن عظمة هذه السيدة الكبرى لنبين مضمون العبارة الرائعة التي قرأتها على سيّارة بعض المؤمنين التي تقول: (السيدة زينب روضة العلم

ابن عباس «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعليّ بابها». وكما تعلم أنه لا يجوز الدخول من غير الباب المخصّص فسيأخذك إلى غير النبي (صلى الله عليه وآله) وغيره باطل محض. ومراد سيدنا الأستاذ بقوله: «وعليّ باب رسول الله» أي الوسيلة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) هو أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن وصل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقد دخل في الرحمة الإلهية لأنه (صلى الله عليه وآله) رحمة الله للعالمين، ودخل في الأمن الإلهي لأنه أمان للبشرية، واستضاء بنوره لأنه سراج منير.

^١ ورد هذا المقطع الشريف في الزيارة، ومراده أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) هو باب إلى الله تعالى وهو الوسيلة إلى الله تعالى لقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ) (النساء: ٦٤)، فحيث كان النبي (صلى الله عليه وآله) باباً من أبواب الله تعالى ووسيلةً إليه، فلا بدّ من الولوج إلى الرحمة الإلهية من الباب الذي فتحه لنا واتّخاذ الوسيلة التي لها قابليّة أن توصلنا لله تعالى ولأنّه (صلى الله عليه وآله) أفضل الخلق طراً فهو الباب الأوسع والوسيلة الأسرع.

^٢ أي لو حذفنا الوسطة بينها (عليها السلام).

والنور)، وحيث إنها سلام الله عليها كذلك فلنستمدّ سويرة من علمها ومن نورها ممّا يجعلنا نعيش في هذه الروضة ونهتدي بنورها إن شاء الله تعالى.

لقد كتب لنا التأريخ عن العشّاق، وأجمل ما كتب عن قيس العامري العاشق، مجنون ليلي، فإنه كان يمرّ على جدران ديار ليلي بعد أن فارقت، وكان يقبل هذه الجدران بلهفة المشتاق وعطش العاشق، فلامه الناس على ذلك ووصفوا هذا الفعل بالجنون، فردّ عليهم بقوله الرائع الذي صاغه بيت من الشعر، فقال:

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

فالحبّ يعلم الإنسان ماذا يفعل مع الحبيب في حضرته، وكيف يتعامل مع ديار الحبيب وآثاره، هكذا نحن عندما ندخل على حبيبة الله وحبيبة أمير المؤمنين عليه السلام وحبيبة الإمام الحسين عليه السلام، حبيبة أهل البيت عليهم السلام، فنقبل الأبواب والضريح ونقول لمن يعترض على ذلك كما قال قيس العامري^١،

^١ نعم نقول كما قال قيس العامري، ولكن لا نستدلّ بقول قيس بل هو شاهد من التأريخ، وحيث كان ردّه منطقياً فاستشهدنا به، وإلّا لنا دليلنا المتين كما في جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي (٢٠: ١٧٢) حديث طويل إلى أن قال: فرنا لله شكراً لما عرفنا وقبلنا الأرض بين يديه وسألناه عمّا أردنا فأجبنا، فحملنا إليه الأموال الخبز: ومعناه عندما التقوا بالإمام الحجّة (عليه السلام) فعلوا ذلك ولم يردعهم عنه، فجاز أن نقبل ما يمت لهم بصلة تعظيماً وحباً، كما أنه ورد في السنة المتفق عليها عند الفريقين تقبيل الحجر الأسود في الحجّ، وينقل أنّ أحد علمائنا الكبار عند تشرفه بزيارة بيت الله الحرام وعند لقائه بالملك في السعودية جعل مصحفاً في جلد خروف وأهداه إلى الملك، ولما عرف الملك ذلك قبل القرآن، ولكن فوق الجلد، فقال العالم: لم قبلت الجلد أيها الملك؟ قال: إنّما قبلت القرآن الذي في باطن الجلد وهذا هو قصدي، فقال العالم: وهكذا الشيعة يقبلون الضريح وقصدهم من في الضريح وليس الحديد أو الخشب، وإنّما كتبت هذه القصّة كشاهد في المقام للاستدلال بها. ونقول في التفسير إنّ النبي يعقوب (عليه السلام) لما ألقوا عليه قميص يوسف (عليه السلام) وارتدّ بصيراً بإذن الله تعالى، فكان للقميص أثراً وضعياً بإذن الله تعالى.

فإذا وقف الإنسان على جمال حبيبه، فإنه يعشقه لأنَّ الإنسان يعشق الجمال، وإذا عشق الحبيب لجماله، سيقبل جداره وكلَّ آثاره لو لم يتمكن من تقييله، فلا يُشكل علينا أنَّ هذا الفعل شرك^١ والذين توهّموا الشرك في هذه الأفعال إنما ينشأ توهّمهم هذا من عدم معرفة مقام أهل البيت عليهم السلام معرفة جمالية، ولو أنّهم عرفوا مقامهم سلام الله عليهم لفعّلوا كما فعل قيس العامري إلاَّ أنَّ معرفتهم الأئمة المسلمين حقاً معرفة جلالية مع أنَّ لهم رتبة أخرى لا يعرفهم فيها إلاَّ الله سبحانه، وهذه المعرفة هي الرتبة العليا في المعرفة وتسمّى المعرفة الكمالية^٢،

^١ إنَّ الشرك له معنى عند أهل التفسير والعقائد ألا وهو عبادة غير الله مع الله سبحانه، ونحن عندما نفعل هذا التعظيم لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) ولذريّاتهم الكريمة فليس المقصود منه العبادة، ولا يقول أحد من الشيعة - عامّتهم أو علماءهم - إننا نرى في صاحب الضريح له أو يفعل فعل الإله بالاستدلال، ومن في قلبه شكّ في كلامي فليرجع إلى كتبهم ومن في قلبه مرض ندعو الله تعالى أن يزيل مرضه.

^٢ قسّم الأستاذ المعرفة الإلهية إلى ثلاثة أقسام:

أولها - المعرفة الجلالية، والتي معناها سلب النقص عن المعرف وبيان الحدود، فقولنا الله تعالى ليس بجسم، ليس متّحداً مع غيره، ليس في جهة وغيرها من الصفات التي يجعل الله تعالى عنها وتسمّى الصفات الجلالية، وعند بيان أنّه تعالى واجب الوجود وليس ممكن الوجود فنكون قد بيّنا الفرق بينه وبين مخلوقاته، هذه هي المعرفة الجلالية.

ثانيها - المعرفة الجمالية، وهي أن نعرف الله تعالى بصفات الجمال وأنّه يتّصف بالعلم والقدرة والحياة وبصفات أفعالية كالرازق والخالف وغيرها.

ثالثها - المعرفة الكمالية، وهي المعرفة التامة أي معرفة الكنه والحقيقة، وهذه ممتنعة على المخلوق ولا يعرف الله بهذه المعرفة إلاَّ الله تعالى لأنّه هو الذي يعلم ذاته ولأنّه لا محدود فلا يحيط به شيء وهو يحيط بكلّ شيء، وقد وردت روايات كثيرة تؤكّد هذا.

وأما معرفة النبيّ وأمير المؤمنين وأهل البيت (عليهم السلام) لله تعالى فهي معرفة جمالية إلاَّ أنّها أعلى مراتب المعرفة الجمالية لأنَّ المعرفة الجمالية لها مراتب متفاوتة. وأما المعرفة الكمالية فقد ورد عنه (صلى الله عليه

وبناءً على هذا فإذا أردنا معرفة السيِّدة الجليلة الجميلة الكاملة زينب الكبرى عليها السلام لا بدّ لنا أن نعرفها بهذه الرتب الثلاثة من المعرفة التي ستكسبنا أدباً وخضوعاً وحبّاً وعشقاََ زينبيّاً، لأنّها باب الله تعالى الذي منه يؤتى، ووسيلته التي إليه ترجى، فحديثي سيكون عن عظمة هذه السيِّدة التي لو رأينا جمالها لوصلنا إلى

وآله): «ما عرفناك حقّ معرفتك». وهكذا أهل البيت (عليهم السلام) هناك من يعرفهم معرفة جلالية أي بسلب النقوص عنهم في الرتبة البشرية وأنهم يجلّون عن غيرهم من أهل المعصية والفجور والزلل والخطل والوهم والانحراف والاشتباه والالتباس، كما ورد ذلك في الزيارة الجامعة التي سوف تأتي إن شاء الله كما أنّهم يعرفون بالمعرفة الجمالية أي نعرفهم كما يعرفهم سلمان المحمّدي بأنهم أهل الفضل ولهم أعلى الرتب في كلّ كمال فضلا عن تنزّههم عن كلّ نقص، ولهم معرفة أخرى هي المعرفة الكمالية أي الإحاطة بكنههم وحققتهم، وهذه لا يرتقي إليها مخلوق إلّا هم، فهم يعرفون حقيقة أنفسهم فقط والله من ورائهم محيط فلذلك قال النبيّ (صلى الله عليه وآله) لعليّ (عليه السلام): «يا عليّ ما عرفني إلّا الله وأنت، وما عرفك إلّا الله وأنا». وهذه الرتب تجري على سيّدتنا زينب لأنّها من أهل البيت (عليهم السلام) إلّا أنّهم حجج الله تعالى وخلفائه ولهم من الصفات والحقيقة التي لا يدانيهم فيها حتّى مثل زينب (عليها السلام). ولكن لا بدّ أن نعرفها بالمعارف الثلاثة حتّى نطلع على مقامها الشامخ.

مقام الفناء^١ في وصفها وتمايم الانبهار بجمالها، فالعبارة التي قرأتها على تلك السيارة (السيدة زينب روضة العلم والنور) سواء قصد كاتبها ما فهمت أو لم يقصد فإنّ زينب الكبرى هكذا حقاً، ولكن لا بدّ من معرفة عمق هذه العبارة وكيف تكون روضة العلم والنور؟ ولماذا لا نحسّ هذا النور سيّما ونحن بجوارها وحول ضريحها؟ لماذا لا يُذهب نورها ظلمتنا؟ لماذا لا يرفع علمها جهلنا؟ لماذا لا يطيب عطرها أرواحنا؟ لماذا لا تلعو حقيقتها على أوهامنا؟ نحن نعلم أنّ الذي يقف أمام نور حسيّ سيتكوّن خلفه ظلّ وظلمة، ويتصاغر هذا الظلّ وتندحر هذه الظلمة كلّما اقتربنا من النور، فما يعيشه الإنسان من الجهل الذي خلق من الظلمة، وجعل له جنوداً وهي الصفات الذميمة وكلّها ظلمانية، كما خلق العقل من النور وجعل الله له جنوداً نورانية كما في حديث العقل في كتاب الكافي.

فالظلمات التي يعيشها الإنسان هي السبب في هذا البعد عن الحقّ والحقيقة.

فيا ترى عندما ندخل حرم السيدة عليها السلام ولا نشعر النورانية وبالعلم الإلهي، هل المناظر الشيطانية التي ألفناها كلّ يوم في الشوارع والأسواق والأزقة والسيارات العامّة، هي الحاجب أم الأدران المعنوية أم كلاهما؟ والحقّ أقول إنّ

^١ المقامات التي يصل إليها المؤمن في السير والسلوك الذي تعلّق قلبه بالمعشوق سواء كان هذا المعشوق هو الله تعالى، أو من يحبّه الله تعالى، فهي متعدّدة ومنها مقام الفناء أي أنّ العاشق يكون مرآة المعشوق.

المناظر الشيطانية لها دورها الذي لا يستهان به^١، ولكن الظلمة القلبية الناشئة من الذنوب لها دورها الأكبر^٢، ويكفي شاهداً على ذلك قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^٣، فلكثرة هذه المشاهد الشيطانية يموت فينا هذا الإيمان الضعيف، فنعتاد على رؤيتها وتستأنسها النفوس وهذا ما أحسسته^٤، فإذن لا بدّ من علاج

^١ إنّ المشاهد أو المناظر سواء كانت رحمانية أو شيطانية لها أثرها على القلب والروح ولذلك جاء الحديث الشريف بمعاشرة (من يذكركم الله رؤيته) أي انظروا إلى من يذكركم بالله تعالى وعاشروه لكي يكون رفيق صلاح لقلوبكم، وإنّ النظرة الثانية للمرأة الأجنبية سهم من سهام الشيطان.

^٢ نعم ذكر أهل الحديث عن إمامنا الصادق (عليه السلام): «إن أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء»، وكلّما ازداد الذنب اتّسعت النكتة حتّى تستولي على القلب جميعه فيكون قلباً محجوباً ومنكوساً بسواده عن الحقّ. وهناك للذنوب آثار أخرى كثيرة وعليكم بمراجعة كتب الحديث لتعرفوا مضارّ الذنوب. كما لسيدنا الأستاذ كتاب (التوبة والتائبون على ضوء القرآن والعنصرة) وهو مطبوع ضمن المجلد الرابع من موسوعته الكبرى (رسالات إسلامية) فراجع.

^٣ مستدرک الوسائل، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب الثالث، الخبر السابع، عن كتاب قصار الجمل.

^٤ إنّ ظاهر سيدنا الأستاذ دام عزّه يدلّ على أنّه حاو على رتبة عالية من الإيمان، فلو قال إنّ رتبة أضعف الإيمان ماتت لتكرّر المشاهد الشيطانية فليس مراده أنّه بقي بلا إيمان وإنّما مراده أنّ النهي عن المنكر في القلب يستوجب رتبة ضئيلة من الإيمان وهي المعبر عنها في الحديث بـ «أضعف الإيمان»، فلو تركنا النهي بقلوبنا لكثرة المشاهد الشيطانية نكون قد قتلنا هذه الرتبة الضئيلة وهذا ما أحسّه السيّد حفظه الله تعالى.

لما نحن فيه ولا أرى علاجاً ناجعاً لهذه اللوثة إلا معرفة زينب العقيلة كما هو اللائق بها، لأنّ القلب لو تنجّس بشيء من هذه القاذورات فإنّه يطهر بدخوله إلى حضرة هذه اللبوة الطاهرة ويخرج منها طاهراً مرّة أخرى، وكما أنّ الماء يطهّر البدن فزينب تطهّر القلب والروح ولا قياس^١، فبعطرها نتعطرّ وبطهرها نتطهّر، وجاء عن النبيّ ﷺ^٢: إنّ من وقف قرب بائع العطر يصيبه شيء من ذلك العطر، وهكذا الذي يدخل إلى العطر المعنوي وينغمس فيه فسيكون مصدراً للعطر أينما حلّ، فلنعرف زينباً، ولنزر زينباً، لتجب لنا الجنّة، فإنّ من زارها عارفاً بحقّها وجبت له الجنّة^٣، وإن لم نعدم الثواب في زيارة بلا معرفة، إلا أنّ السعادة الأخرويّة واللذّة العنويّة، لا تتمّ إلا بزيارة محاطة بمعرفة كمالية أو جمالية، فبهكذا زيارة تتغيّر جواهر القلوب، وترتفع الحجب الظلمانية، وتفتح الأقفال.

ربما يتبادر إلى الذهن أنّ هذه الكلمات إنشاء محض وهذا التبادر ناشئ من

^١ أي لا قياس بين المطهّر المادّي وآثاره وبين المطهّر المعنوي وآثاره لما للمطهّر المعنوي من أهمية كبيرة في حياة البشر.

^٢ جاء في الحديث عن رفيق السوء وعشرته وعن رفيق الصلاح وعشرته: «إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال: إنّ مثل جليس السوء كمثل نافخ الكير فإن لم يصبك من رائحة كيره أصابك من سواده، وقيل الجليس الصالح كبائع الطيب فإن لم يصبك من طيبه أصابك من رائحته».

^٣ ورد في حقّ السيّدة فاطمة المعصومة أخت الإمام الرضا (عليه السلام): «عن سعد الأشعريّ القميّ، عن الضرا (عليه السلام)، قال: قال: يا سعد عندكم لنا قبر؟ قلت: جعلت فداك قبر فاطمة (عليها السلام) بنت موسى بن جعفر (عليه السلام)، قال: بلى، من زارها عارفاً بحقّها فله الجنّة»، فما بالك بزينب، فإنّه من الأولى أن يكون لزارها الجنّة إذا كان عارفاً لأنّها كفاطمة المعصومة إذا لم تكن أعلى وأرفع، وهذا من تنقيح المناط عند الأستاذ دام ظلّه.

التسرّع في الحكم، فنحن نقول: المعرفة من العرفان في مقابل العلم^١ وربما يكونان مترادفين، إلاّ أنا نرى أنّ هناك فرق بين العلم والمعرفة، فالعلم يهتمّ بالكليات والمعرفة تهتمّ بالجزئيات، فيطلق على الله تعالى عالم ولا يطلق عليه عارف^٢ فالمعرفة كلّية تشكيكية لها مراتب^٣ طولية وعرضية^٤ وبالمعرفة توزن الأشياء، ولهذا قال مولى الموحّدين عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا، فإنّ الإنسان مخبوء تحت طيّ لسانه»^٥، وجاء أيضاً: «تكلّموا يرحمكم الله، فبالكلام يعرف

^١ هنا الكلام يدور عن العلم والمعرفة، ولو أردنا أن نتجاوز هذا الهامش لكان بالإمكان كتابة فصل خاصّ بذلك، ولكن نبيّن ذلك بحسب ما يسمح به المقام، فنقول: إنّ الفرق بين العلم بالمعنى الأعمّ والعرفان المأخوذ من المعرفة، فإنّ المعرفة عبارة عن إدراك الجزئيات والعلم عبارة عن إدراك الكليات، وقيل: إنّ المعرفة تصوّر والعلم تصديق، ولمثل هذا يقال: كلّ عالم عارف، وليس كلّ عارف عالم.

^٢ لا يطلق على الله تعالى عارف لأنّ المعرفة أخصّ من العلم وهي علم بالشيء مفصّلاً عمّا سواه أي علم بالجزئيات، والعلم هو إحاطة بالكليات والجزئيات والله تعالى محيط بالكليات والجزئيات، فلذلك نطلق عليه عالم ولا نطلق عليه عارف تعالى عن ذلك.

^٣ مراده من الكليّ التشكيكي: أي أنّ مفهوم المعرفة مفهوم كليّ ينطبق على مصاديقه وهذه المعرفة ذات مراتب متعدّدة وهذا مراده من كلمة تشكيكي، والكليّ التشكيكي ما يتفاوت في التقدّم والتأخّر والضعف أو الأولوية ويقابله الكليّ المتواطي كالإنسان.

^٤ طولية وعرضية: أي مراتب المعرفة إحداها في طول الأخرى أي تليها ومتوقّفة عليها فتسمّى مراتب طولية، وأخرى معرفة في قبال معرفة موازية لها فتسمّى عرضيّة.

^٥ نهج البلاغة / قصار الكلمات، ومعناها أنّ قيمة الإنسان تحدّد من كلامه، ويستدلّ عليه أنّه صادق أو كاذب، عالم أو جاهل من خلال كلامه، لأنّ الكلام صفة المتكلّم، والظاهر عنوان الباطن.

قدركم»، فالمعرفة إذن هي أسّ الكمال لكلّ قابل لها^١ وهي على ثلاثة أنحاء كما ذكرنا جلالية، وجمالية وكمالية وأقرب هذا بالمثل (فإنك لو رأيت جبلا عن بعد فإنك ستعرفه بحدوده وإنه لم يكن شجراً أو حيواناً أو شيئاً آخر إنما هو جبل، وهذه معرفة جلالية، ولكن لو اقتربت منه ورأيت جماله وصلابته وشموخه فهذه معرفة جمالية، وعندما تصعد عليه وترى كنهه وواقعه فهذه معرفة كمالية)، وهكذا معرفتنا للأئمة الأطهار عليهم السلام.

ورد في الزيارة الجامعة: «ما من وضع ولا شريف ولا عالم ولا جاهل إلا عرف جلاله قدركم»^٢، أي حتى عدوّهم يشهد بفضلهم لأنه يعرفهم معرفة جلالية، وهناك من يعرف أمير المؤمنين عليه السلام والسيدة زينب عليها السلام بمعرفة جمالية فلذلك استحقّ سلمان الإخلاص سلمان التقوى، أن يكون من أهل البيت عليهم السلام فقالوا في حقّه: «سلمان منّا أهل البيت»^٣، فتراه ملازماً لأمير المؤمنين عليه السلام فكلّما دخل الأصحاب المسجد وجدوا سلمان بجوار مولاه يشرب من معينه الصافي ونميره العذب، فاتّفقوا على أن يسبقوا سلمان إلى أمير المؤمنين عليه السلام

^١ أسّ الكمال القابل لها: أي أنّ المعرفة هي الأساس الأوّل والأهمّ في كمال كلّ من له قابلية لحمل هذه المعرفة وهذا القيد، لأنّ المعرفة مختصّة بمن له إدراك دون سواه.

^٢ مفاتيح الجنان؛ للمحدّث القمي: ٦١٠.

^٣ «سلمان منّا أهل البيت» هذا حديث مشهور عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) وأيضاً ورد في الدرجات الرفيعة عن أبي جعفر (عليه السلام) وفي البحار عنه أيضاً (عليه السلام) ومراد الأئمة (عليهم السلام) وسيدهم أنّ سلمان منهم أي على نهجهم وفكرهم وسلوكهم ويطابقهم القدم بالقدم والنعل بالنعل، بل ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه خلق من طينتنا وروحه مقرونة بروحنا... وهناك كلام طويل فليراجع عنه في الكتب المؤلّفة فيه.

فبكرّوا بالمجيء وفعلا لم يجدوا في الطريق إلا آثار أقدام الإمام عليه السلام ففرحوا بذلك، ولكن ما أن وصلوا المسجد، وإذا بسلمان جالس عند أمير المؤمنين عليه السلام، فتفاجأوا فقالوا: يا سلمان، من أين أتيت؟ أنزلت من السماء أم خرجت من الأرض؟ فقال سلمان: إنما جئت من حيث جئتم. فقالوا: فأين آثار أقدامك؟ فقال: إنني لمّا رأيت أقدام أمير المؤمنين عليه السلام فوضعت أقدامي عليها، لأنني أعلم أنه لا يضع قدماً ولا يرفعها إلا بحكمة وعلم، هكذا يعرف سلمان مولاه وهكذا يقتفي أثره، فمعرفة سلمان معرفة جمالية ولكن لأمر المؤمنين عليه السلام معرفة أخرى وهي المعرفة الكمالية وهذه منحصرة بالله تعالى ورسوله حيث أكد ذلك النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، ما عرفك إلا الله وأنا...»^١ لأنه لا يعرف حقيقة الولي والحجة وباطن أمير المؤمنين عليه السلام إلا من كان محيطاً بذلك تمام الإحاطة، وإن شاء الله في المحاضرات الآتية سنعرف زينباً بشي من المعرفة الجمالية من خلال أحاديثهم الشريفة، وهذا ما نفهمه من قول الإمام زين العابدين: «أنت عالمة غير معلّمة» فبكلامه هذا أراد أن يعرفنا جمالها وعظمتها، فمثل هذا الكلام من الإمام المعصوم عليه السلام إشارة إلى جمال زينب عليها السلام، وهذا أبوها أمير المؤمنين عليه السلام عندما يدخل عليها وهي تفسّر القرآن الكريم للنساء وفي آية (كهيعص) فأشار

^١ هذا حديث نبوي مشهور: «إن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لأمر المؤمنين (عليه السلام): يا عليّ، ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا»، وهنا يشار إلى أنّ معرفة النبي (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين لله تعالى معرفة تفوق معرفة جميع الخلق ومختصة بهما مع الأئمة الأطهار وفاطمة الزهراء (عليهم

أمير المؤمنين عليه السلام إلى سرّ هذه الحروف المقطّعة فقال: «ك يعني كربلاء وما سيجري فيها على زينب»^١، وورد في روايات العرش أنّه كتب على العرش: «زينة العرش الإلهي عليّ بن أبي طالب»^٢، وكتب في اللوح المحفوظ: «زينة اللوح المحفوظ زينب»، وهذا الحديث إشارة صريحة إلى جمال زينب، فأذن من خلال معرفتنا لجمالها عليها السلام نزداد حبّاً لها، ومن خلال ازدياد الحبّ نزداد أدباً وشوقاً، ومن خلال الأدب والحبّ نزداد علماً ونوراً في روضتها ودوحة علمها وعنوان بطولتها وصبرها.

العلم كثير ومنه ما هو نافع، ومنه ما هو ضارّ، وفيه ما لا نفع فيه إذا علّم، ولا ضرر فيه إذا جهل، وهذا ما يوضحه الحديث المروي عن «إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دخل المسجد فوجد الناس قد تجمهروا على رجل فقال: ما هذا؟ قالوا: علامة يا رسول الله، فقال: وما العلامة؟ قالوا: إنّهُ أعرف بأنساب العرب وأشعارها، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: هذا علم لا يضرّ من جهله ولا ينفع من علمه، إنّما العلم ثلاث: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة، ما خلاهن فضل»^٣، فمن دراية هذا

^١ (كهيعص) هذه الحروف المقطّعة في سورة مريم آية (١)، لها من التأويل في قضية كربلاء، وإنّ كلّ حرف يدلّ على شيء وحدث في كربلاء مذكور في محلّه، فالكاف تدلّ على كربلاء، والهاء هلاك يزيد، والصاد تدلّ على صبر الحسين، والعين عطشه، وغير ذلك.

^٢ لمعرفة هذه الكتابة على العرش يراجع كتاب السيّد العلوي (هذه هي الولاية) المجلّد الخامس من الموسوعة (رسالات إسلامية)، وكذلك (الإمام الحسين في العرش الإلهي) و (زينب الكبرى زينة اللوح المحفوظ) في المجلّد السادس من الموسوعة.

^٣ قوله: «ما خلاهن فضل» أي أنّ العلوم البشرية لها أهمية كبرى لكنّها تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية والحاجة البشرية لها بعد العلوم الإلهية بحيث يصل التكليف فيها حدّ الوجوب الكفائي وأحياناً يتعدّاه إلى الوجوب العيني حسب حاجة الأمة الإسلامية وأهمية هذه الحاجة فيراجع كتب الفقه الاستدلالي في ذلك.

الحديث كما عند الفيض الكاشاني في كتاب الحقائق يقول: هذه الكلمات الثلاثة إشارة إلى علوم ثلاثة تنفع في الدنيا والآخرة وفي عالم القبر، فالمراد بـ «آية محكمة» يعني علم الكلام لأنّ علم الكلام الذي هو علم العقائد، علم المبدأ والمعاد وما بينهما لا يثبت إلاّ بالآية المحكمة ألا وهي البرهان العقلي الذي لا يجوز فيه التقليد^١.

وهذه القصة شاهدة على ذلك قصة الفلاح الذي دخل عليه رجل وسأله بأيّ شيء تستدلّ على وجود الله تعالى، انزعج الفلاح من هذا السؤال ثمّ رفع المسحاة وضرب الرجل على رأسه وقال: بهذا أستدلّ^٢، ورواية النبي ﷺ الذي مرّ على عجوز بيدها مغزلها وسألها عن وجود الله تعالى فقالت: أستدلّ عليه بهذا المغزل، أي برهان الحركة^٣ فيقال إنّ قال ﷺ : عليكم بدين العجائز فإنّه دين

^١ أي أنّ أصول الدين التي هي العقائد لا يجوز فيها التقليد، بل لا بدّ من الاستدلال والقناعة الخاصة بذلك، إلاّ أنّه يقال في حقّ من ليس له القدرة على الاستدلال أنّه يكفي منه بحسبه ولكن عن قناعة تامّة.

^٢ أي استدلال الرجل على أنّ لكلّ حادث محدث، وهذا الضرب الذي سقط على رأس السائل هو بسبب الفلاح فكيف لا يكون لهذا الكون الحادث من محدث؟

^٣ البراهين كثيرة والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام)، إلاّ أنّ هناك برهاناً اسمه برهان الحركة ومفاده أنّ لكلّ متحرك محرّك يحركه، وهكذا مغزل العجوز إن حرّكته تحرك، وإن تركته سكن واستقرّ، فكيف بهذا الكون المتحرك المتغيّر يتحرك بدون محرّك هذا محال؟

الفطرة^١، لأنّ كلّ مولود يولد على الفطرة^٢، فهذا كلّه إشارة إلى أنّ الدليل العقلي هو الموصل إلى الله تعالى وهو المراد بـ «آية محكمة» وأمّا قوله «فريضة عادلة» فهو إشارة إلى علم الفقه حيث إنّ عبارة عن الفرائض الواجبة والمحرمات، فالفقه هو الفريضة العادلة التي تعبّر عن العدل الإلهي فيها يصل الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالفريضة العادلة هي التقوى وسيكون كلامي عن التقوى العامّة وتقوى الخاصّ وتقوى خاصّ الخاصّ^٣.

وأما السنّة القائمة فهي إشارة إلى علم الأخلاق الذي هو ملكة راسخة، وقوله ﷺ: وما خلاهنّ فضل، فمراده إمّا زيادة أو فضيلة وعلى كلا الأمرين يكون العلم البشري ضرورياً حسب حاجة الأمة إليه ولعلّه يصير واجباً عينياً بعد أن كان واجباً كفاً، وهذا العلم الإلهي ينفع في القبر أيضاً، لأنّ السؤال الثاني الذي يوجّه إلى صاحب القبر عن الصلاة والصيام وفروع الدين بعد السؤال عن أصول الدين، فعلى هذا لا بدّ لنا أن نتعلّم من زينب ونزداد منها علماً، فإذا لم نزداد أو لا نتعلّم ونحن بحضرتها المقدّسة، فهذا القصور فينا لا فيها، لأنّ القصور في

^١ أي أنّ هذه العجوز أجابت بحسب فطرتها التي فطرها الله عليها وبدون التثبّت بالدراسة والتعلّم فإنّ الله تعالى فطر الناس على معرفته كما ورد في الحديث.

^٢ ورد حديث مستفيض عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «لكلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يأتي أبواه فيهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه».

^٣ أي أنّ التقوى تُقيّم بحسب صاحبها فهناك تقوى العوام من الناس الذين يعملون الواجبات ويتركون المحرمات وهناك رتبة أعلى وهي تقوى الخاصّ أي أنّ هناك أناس لهم تقوى أوسع وأدقّ من الطبقة السابقة، وهناك طبقة أعلى منها، وندع ذلك للسيد حفظه الله تعالى في بيان المراد منها.

القابل لا في الفاعل، لأنّ فاعلية الحوراء تامّة^١، كالشمس تضيء لذي عينين، ولا ينتفع منها الأرمـد. وكلّما دخل الإنسان إلى حضرة زينب يزداد علماً وينفتح له باب من ذلك العلم، وإنّ هذا العلم لا ينضب لأنّه علم الله تعالى بل هو الله تعالى^٢، والله تعالى لا نهاية له، لأنّه الأوّل والآخـر والباطن والظاهر^٣، فيكفيك أن تجلس أمام وجودها وشعاعها وتفكّر في مسألة، فإنّه سينفتح لك علم جديد لم تعلمه من قبل، وهذا هو الإلهام الإلهي، لأنّ العلم ليس بكثرة التعلّم إنّما العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء^٤، وهذا ما أكّده روح الله عيسى بن مريم عليه السلام بقوله: «ليس

^١ الفاعلية والقابلية: هذان مصطلحان فلسفيان فيراد من الفاعلية أنّ الفاعل له القدرة التامة على الفعل ولا يمنعه شيء، والقابلية يراد منها أنّ الطرف المتلقّي للفيض من قبل الفاعل له القدرة والمؤهلات لتلقّي هذا الفيض وهناك شرح فلسفي في محلّه، وإنّما اكتفينا بما يناسب الجميع.

^٢ مراد السيّد الأستاذ من «أنّ العلم هو الله تعالى» أي أنّ العلم صفة ذاتية من صفات الله تعالى، وبما أنّ صفاته عين ذاته، فصار تعالى علم كلّه في عين هو قدرة وفي عين هو حيّ، وهكذا فيصحّ أن تقول العلم هو الله تعالى بعيداً عن الاتحاد، وإنّما المراد العينية.

^٣ إنّ الله تعالى هو الأوّل أي لم يسبق بشيء أو بالعدم أو بالزمن، والآخـر أي لم يلحق بالغير أو العدم، والظاهر أي المعروف والمتجلّي لخلقه في آثاره وعلاماته، والباطن أي لا يحاط بكنهه وبحقيقته، وهناك كلام أوسع من هذا.

^٤ ورد في الحديث الشريف في بحار الأنوار (١: ٢٢٥): «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء» أي فكرامة لزينب (عليها السلام) يلهمك الله تعالى حلّ هذه المسألة التي فكّرت بها، ولهذا النور مراتب حسب مراتب الإيمان.

وهناك كلام أعمق في كيفية هذه النورانية وما هي الشروط التي يجب أن يتحلّى بها القابل الذي فاض عليه هذا النور، طوينا عنه كشحاً لأنّه لا يناسب المقام الذي نحن فيه وهو معروف عند أهله.

العلم في السماء حتّى ينزل إليكم، ولا في الأرض فيخرج لكم، إنّما العلم في قلوبكم فتخلّقوا بأخلاق الروحانيين يظهر لكم»، وهذا مرادف لقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً تتفجّر ينابيع الحكمة من قلبه»^١، ولكن هذا لا يعني ترك الدراسة التي هي مقدّمة للعلم الإلهي، فإياها الذين آمنوا لا يستحوذ الشيطان على قلوبكم كما استحوذ على غيركم لأنّ حكومة الرحمن هي الحاكمة وليس حكومة الشيطان^٢، وهذا يتمّ بمعرفة جمال السيّدة زينب لا في أنّها بنت عليّ وفاطمة وأخت الحسين وأمّ المصائب، فهذه حدودها ويعرفها القصيّ والداني والمسلم والكافر، وإنّها من المعرفة الجلالية، بل لا بدّ من المعرفة الجمالية، فهذا القول يوضح لنا ما هي ثمرة المعرفة الجمالية فيقول: «من طلبني عرفني، ومن عرفني عشقني، ومن عشقني قتلته، ومن قتلته فأنا دينته».

فنور زينب نور معنوي كالنور الحسّي، ظاهر بنفسه ومظهر لغيره، والنور الأوّل هو الله تعالى، حيث إنّهُ نور السماوات والأرض، فروضة النور يعني روضة إلهية، والنبوّي ﷺ نور حيث إنّهُ سراج منير، فتكون روضتها ﷺ روضة نبويّة وقرآنية وولوية، لأنّ القرآن نور والولي نور «فكلّامكم نور وأمركم رشد»، فتكون روضتها روضة أحاديث أهل البيت ﷺ، فالدخول في هذه الروضة

^١ أصول الكافي، الجزء الثاني في باب الأخلاق.

^٢ ليس للشيطان حكومة على أحد بل ليس له إلا الوسوسة والتزيين والتسويل فهو لا يسلب الاختيار عن أحد، ولكن تضعف النفوس فتقع في شراكه ليس إلا، والله تعالى برحمته العامّة التي عمّ بها جميع مخلوقاته حتّى الشيطان فتكون حكومته هي الحاكمة وعلى هذا يستطيع الإنسان أن يجعل الشيطان طريقاً إلى الجنّة وذلك بمخالفته له.

يورث العلم والتلذذ المعنوي والروحي، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا»، وطالب الدنيا ينكب عليها مع أنها جيفة «لأنّ الدنيا جيفة، وطلابها كلاب»^١، فلو ناداها صاحبها: هل امتلأت؟ تقول: هل من مزيد، أي آتني من حلال أو حرام، فطالب الدنيا نار، وطالب العلم نور، وذاك جهل، وهذا علم، وذاك شيطان وهذا رحمن.

فهيّا بنا لنزور الحوراء زينب الكبرى بقلوبنا وعقولنا وأجسامنا، فندخل روضتها المقدّسة وحرمةا المبارك، لنستلهم من روحها الزكية ونفسها القدسيّة، العلم الإلهي والنور الربّاني.

وآخر دعوانا أنّ الحمد لله ربّ العالمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

^١ هذا الحديث ورد في أصول الكافي، الجزء الثاني في باب الأخلاق، ومراده أنّ الدنيا لا تكون جيفة بذواتها لأنّ هذه الدوات هي آثار الله تعالى وآثار الله تعالى محبوبة له، فلا يقع الذمّ عليها بل المراد هو أنّ التعلّق بهذه الآثار الذي يمنع الإنسان من التكامل هو المذموم فيكون من حيث النفع لا نفع فيها لأنّها جيفة أي ميتة تنتن الرائحة فلا يقبل على هذا إلا الكلاب، فعلى الإنسان أن لا ينزل إلى هذه المرتبة الحيوانية ويتكالب على الدنيا.

(المحاضرة الثانية)

بعد البسمة والحمد والصلاة:

نحن الآن بجوار السيدة زينب الكبرى عليها السلام ، وكلنا حبّ لمقامها الشامخ، فيحلو لنا الذكر، لأنّ من أحبّ شيئاً أحبّ ذكره، ومن لوازم الحبّ أن يذكر المحبوب^١ ، وكلّما ازداد الإنسان حبّاً ازداد ذكراً لمحبوبه، وهذا أمر فطري وجداني، والوجدانيات من البديهيات^٢ ، فإذن هذا أمر بديهي. فإتماماً لما بدأنا

^١ إنّ حبّ المؤمن لربّه أو لمن يحبه الله تعالى يقوده إلى الذكر، ولذلك جاء عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) في بحار الأنوار (٧٧: ٨٤) قوله: «إنّ أحبّكم إلى الله، أكثركم ذكراً له...» وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): «شيعتنا الرحماء بينهم، الذين إذا خلوا ذكروا الله، إنّنا إذا ذكرنا ذكر الله، وإذا ذكر عدوّنا ذكر الشيطان» في الوسائل، الجزء ٢٣، الحديث ٣، ففي ذكرهم يتحقّق ذكر بارئهم كما ورد عند الفريقين أنّ ذكر عليّ (عليه السلام) عبادة.

^٢ تنقسم القضية اليقينية إلى بديهية ونظرية كسببية تنتهي لا محالة إلى البديهيات، فالبديهيات إذن هي أصول اليقينيّات، وهي على ستّة أنواع: أوليات، مشاهدات، تجريبيات، متواترات، حدسيات، فطريات، وهي المراد في متن الكتاب، وتفصيل ذلك في علم المنطق.

نقول:

إنّ تقسيم المعرفة إلى جلالية وجمالية وكمالية، فإنّما يكون هذا التقسيم أولاً في الصفات الإلهية كما بيّنا سابقاً، وهذا التقسيم موجود أيضاً في جميع الشرائع السماوية، فمثلاً لو أردنا أن نعرف الأحكام الشرعيّة فنعرفها تارةً بجلالها كما لو أردنا أن نعرف الصلاة، فمنهم من سيعرّفها لنا بحدودها كصلاة الصبح مثلاً ركعتان والظهر أربعة، وهناك من يعرف لنا الصلاة بجمالها أي بأسرارها^١، وهناك من يقف على حقيقة الصلاة وهذه معرفة كمالية للصلاة^٢، وهناك تقسيم مشهور لأعلامنا ولا بأس بذكره باعتبار أنّ المحفل محفل علمائي أيضاً لحضور أهل العلم حفظهم الله تعالى.

فنقول: إنّ المعرفة تارةً تكون حسيّة أي من خلال الحواسّ الظاهرية،

^١ للصلاة أسرار ذكرت في الكتب المعدّة لذلك، فهناك سرّ لكلّ فعل ولكلّ قول من أقوالها، ففي قولك «الله أكبر» في تكبيرة الإحرام مثلاً هو أن تستصغر ما بين العلى والثرى وتجعل كلّ شيء دون كبرياته فهذا ما ورد عن إمامنا الصادق (عليه السلام)، وفي القيام يعني المثلول بين يدي الله تعالى لأداء حقّ العبودية واستجلاب خيرات الربوبية، فمعرفة أركان الصلاة وأجزائها بهكذا معرفة تسمّى هذه المعرفة معرفة جمالية.

^٢ عند الوقوف على حقيقة الصلاة فإنّك ستراها معراجاً للمؤمن يعرج بها إلى ربّه، وتراها أيضاً أنّها صلة بين العبد وربّه فتكون هذه الصلاة في نظرك كما قال النبيّ (صلى الله عليه وآله): «إنّ الصلاة تمكّن، وتواضع، وتيأس، وتندّم، وتقنع، وتمتد يدك وتقول: اللهمّ فمن لم يفعل فهي خداج»، بحيث لو كبرت الله تعالى وكان عملك وقولك مخالفاً ومضاداً للتكبير فسيسمّى هذا التكبير تحقيراً وليس تكبيراً، فهكذا معرفة هي المعرفة الكمالية، ومن رام الزيادة فليرجع إلى كتب أسرار الصلاة، كالأداب المعنوية للصلاة للسيد الإمام (قدس سره) وأسرار الصلاة للشهيد الثاني وأسرار الصلاة لميرزا ملك التبريزي.

وأخرى تكون علمية، وثالثة تكون فلسفية، حيث إنَّ هناك فرق بين المعرفة العلمية والفلسفية، ورابعة تكون شهودية، وخامسة تكون دينية، وسنوضح هذه المعارف كالاتي:

أولاً - المعرفة الحسية: هي المعرفة التي تكون من خلال الحواس الظاهرية الخمسة، وهي الباصرة والسامعة والذائقة واللامسة والشامة كما أنَّ للإنسان قوى باطنة خمسة، ترسم على شكل زاوية منفرجة في صفحة الذهن، والتي هي عبارة عن الحس المشترك الذي يسمّى بالقوة البنطاسية حيث إنَّ مدركات الإنسان تنطبع في الحس المشترك من خلال الحواس الخمسة، ثمَّ تنتقل بعد ذلك إلى خزانة الخيال ثمَّ إلى القوة الحافظة وهناك قوة ثالثة تكون بين هاتين القوتين هي القوة المتصرفة كما أنَّ هناك أيضاً قوة أخرى تسمّى بالقوة العاقلة، فهذه هي القوى الباطنية الخمسة وأمَّا المعرفة بالحواس الظاهرية الخمسة تسمّى بالمعرفة الحسية.

ثانياً - المعرفة العلمية: هي المعرفة التي يكون العلم أداة فيها^١. وتكون المعرفة جزئية لا كلية بالنسبة إلى المعرفة الفلسفية.

ثالثاً - المعرفة الفلسفية: هي المعرفة التي تهتمُّ بالكليات ويكون الباحث فيها مهتماً بما هو كلي كما لو كان بحثه في الكون فيبحث في العلة والمعلول والحادث والقديم وما شابه^٢.

^١ عندما يجعل المحاضر السيد الأستاذ المعرفة العلمية في قبال غيرها من المعارف ويقول: إذا كان العلم أدواتها فمراده بالعلم بالمعنى الأخص الذي يبحث حول الجزئيات في قبال الفلسفة التي تبحث حول الكليات، وأمَّا العلم بالمعنى الأعم فإنه شامل للفلسفة وغيرها.

^٢ المعرفة الفلسفية: بما أنَّها تهتمُّ بالكليات فيكون بحثها في الموجود بما هو موجود، وهذا البحث يهتمُّ بمعرفة الموجود هل هو علة أو معلول، قديم أو حادث، فلذلك يكون الفيلسوف مهتماً بالمعرفة الكلية للأشياء أي أنه ينظر إلى الكليات لا إلى الجزئيات، والكلام في الفلسفة طويل وكثير فلتأخذ من مظانها.

رابعاً - المعرفة الشهودية: هي عبارة عن الكشف والشهود وهذه المعرفة تختص بالعرفاء^١.

خامساً - المعرفة الدينية: هي المعرفة التي تبني على الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، أي أنها تبني على كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ والولي الوصي المتمثلة بقول المعصوم وفعله وتقريره^٢.

^١ المعرفة العرفانية: يعني هي المعرفة التي بها تكشف الحقائق الكونية وما وراء الطبيعة من خلال صفاء القلب بعد تذهيبه وتزكيته فتعكس حقائق الكون عليه، فيصل العارف إلى مقام الكشف والشهود، ونقول عندما تصفو النفس وننقطع إلى التفكير في الأمور العلوية وتتخلى عن ارتباطها واشتغالها بالأمور الدينية إلا ما تحتاجه من الضرورة ونصب همها واهتمامها في التعرف على ما وراء الطبيعة فإنها ستحصل لها حالات نفسية وتتوارد عليها خواطر قلبية تستشعر من خلالها الارتفاع عن عالمها المادي الضيق وتتصل بعالم المثال أو عالم الأرواح والعقول ومن خلال هذا الاتصال يبدأ الإنسان بدرك الحقائق شيئاً فشيئاً وحسب ما تتوفر له من عوامل موضوعية وذاتية لها مدخلة في تحصيل هذه المعرفة، وهذا ما يعبر عنه بالكشف والشهود، أو الإشراق أو التجلي على اختلاف التسميات.

^٢ فعل المعصوم أي الفعل الذي يفعله المعصوم إمام المسلمين فهو حجة لنا بالتمسك به كسنة نفهم منه درجة الإباحة وكونه مشرعاً، وأما قوله هو عندما يقول لنا افعل كذا ولا تفعل كذا، وأما تقريره معناه أنه يرى الفعل ولا يردع فاعله عنه بشرط أن يكون عدم الردع والسكوت خالي من التقيّة فهذا إقرار منه (عليه السلام) للفاعل بصحة فعله.

^٣ شرط العرفان هو صفاء القلب وتهذيبه وصقله لكي يكون قابلاً لتلقي الحقائق وتنعكس فيه بواطن الأمور كالمرآة كلما كانت صافية كلما كان الانعكاس فيها واضحاً وكلما كانت ملوثة كلما كان الانعكاس ضئيلاً وقد يكون منعماً، ولا نعني بتصفية القلب عدم التعلق بالأمور الدنيوية فحسب بل لا بد من العمل العبادي المتمثل بأداء الواجبات وترك المحرمات والتضرع إلى علام الغيوب والاتصال به دوماً ويقال عن بعض الأعلام إن بعض المؤمنين سألو العارف المتأله الشيخ جواد آملّي عن العرفان العملي فقال: «مفاتيح الجنان والرسالة العملية»، أي

وقفه على المعرفة الفلسفية والعرفانية:

نقف على هاتين المعرفتين لكي نبين الحقيقة لمن يعتبر بعض المظاهر الخاطئة أنها مظاهر عرفانية وهو يخطأ بتطبيق الكلّي على الجزئي أي على المصداق، فنقول: إنّ الفلاسفة يبحثون عن الوجود أو الموجود بما هو موجود حسب الطاقة البشرية وذلك من خلال الاستدلال العقلي، وأمّا العرفاء فيبحثون عن الوجود من خلال صيقله القلب فيقول العرفاء: بقلوبنا نصل إلى الله تعالى، ويقول الفلاسفة: نصل إلى الله تعالى بعقولنا، وهذا لا يتمّ إلاّ بشرطه وشروطه، فلا كلّ من يدعى العرفان هو صادق في مدّعاه بل هو لا يريد إلاّ التصوّف ومن التصوّف ما فيه الانحراف الفكري أو السلوكي، فتدبّر.

في حين إنّ العرفان الذي نحن بصدده هو الذي ينهل من نبع أهل البيت

عليهم السلام^١، ذلك النبع الصافي فبالصقل للقلب ينكشف للعارف الوجود وتنكشف

تطبيق ما في الرسالة العملية وما في مفاتيح الجنان، بالإضافة إلى محاربة الهوى ومجاهدة النفس وتركيب القلب وتخليته وتحليلته بما يوصل إلى الكمال.

^١ منهج أهل البيت (عليهم السلام) يدعو إلى التقوى فيوافق مذاقهم القرآن الكريم الذي هو العدل الأكبر فورد في القرآن الكريم (إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) (الأنفال: ٢٩)، وقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (البقرة: ٢٨٢)، وهذا هو منهج أهل البيت (عليهم السلام) لأنه لن يفترق عن القرآن كما في حديث الثقلين المعروف، وعندما سئل الإمام (عليه السلام) عن قوله تعالى: (أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) (الزمر: ٢٢)، قال (عليه السلام): نور يقذفه الله في قلبه فيشرح صدره، قيل: هل لذلك علامة؟ قال (عليه السلام): «علامته التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت»، وهكذا يلتقي الإمام مع القرآن في... منهج واحد لأنه لا انفصال بينهما، بل هما واحد فلن يفترقا في كل شيء منذ البداية وحتى النهاية.

الحقائق ويكون عند ذلك دليلهم هو الكشف والشهود والإشراقات الإلهية، وهذه القصة التاريخية توضح ما قلناه: (ففي غابر الزمان يُنقل أنّ الاسكندر ذي القرنين جمع الفلاسفة والعرفاء وبنى لكلّ واحد جداراً ليرسموا عليه ما عندهم من البحوث والعلوم وجعل بينهما ستاراً، ثمّ قال: سأرجع إليكم بعد سنة لأعرف ما أنتم عليه، وفعلاً لمّا مضى الوقت الذي قرّره جاء الاسكندر إليهم ودخل على الفلاسفة فوجدهم رسموا على الجدار من كلّ شيء فرداً، فمن الطيور طيراً، ومن الأشجار شجرة، وهكذا، فقالوا: هذا هو الموجود ونحن نبحت في هذا، ولمّا رفع الستار الذي بينهم وبين العرفاء وجد العرفاء قد صقلوا الجدار حتّى جعلوه كالمرآة فانعكست فيه نفس صورة الفلاسفة التي رسموها بالإضافة إلى صورة الاسكندر، فقالوا للاسكندر: نحن نبحت عن ما يبحث عنه الفلاسفة بما في ذلك أنت وحاشيتك من خلال صقل القلب).

وبهذه المعارف التي بيّناها لكم تُعرف الأشياء، فلا بدّ للإنسان الذي يريد الترقّي في سلّم الكمال من المعرفة، فإنّ الفضل بالمعرفة (أفضلكم أفضلكم معرفة) وهي التي تقود إلى العبادة الحقّة الخالصة، ونوم العالم أفضل من قيام

الجاهل^١، ويبيّن لنا ميزان الأعمال والقرآن الناطق أمير المؤمنين عليه السلام مدى الترابط الوثيق بين العلم والعبادة فيقول: «قسم ظهري اثنان: جاهل متنسك، وعالم متهتك»^٢، فالجاهل يغرّ الناس بعبادته والعالم يغرّ الناس بعلمه، فقيمة الإنسان بالمعرفة وهذا عند الله تعالى والراسخون في العلم لا عند الناس، لأنّ الناس أعداء ما جهلوا^٣، فكم نرى من عالم مهجور كما نرى قرآناً مهجوراً ومسجداً مهجوراً، وهؤلاء ممّن يشتكون إلى الله تعالى يوم القيامة^٤، فالناس يجهلون قدر العالم الربّاني ويهجرون هذا العالم حتّى كأنّه غريب بينهم، مع أنّه يدعى في السماء عظيماً كما في الحديث الشريف: «من علم الله وعمل لله وعلم الله دُعي في ملكوت السماوات عظيماً»^٥، فهذه العظمة التي نالها هذا العالم، إنّما هي

^١ ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما رأى رجلاً من الخوارج قائماً يصليّ قال: «نوم على يقين خيرٌ من قيام في شك»، وهذا معناه أنّ الذي على يقين هو العالم والذي على شكّ هو الجاهل، فصار نوم العالم أفضل من قيام الجاهل، وورد عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «يا عليّ، نوم العالم أفضل من عبادة العابد»، أي العابد الجاهل. قصار الجمل - المشكيني ٢: ٦٣.

^٢ نهج البلاغة، قصار الجمل.

^٣ ورد في نهج البلاغة قصار الجمل: «الناس أعداء ما جهلوا»، ومراده (عليه السلام) بحسب ما نفهم من قوله أنّ الإنسان لا يعرف قيمة وثمن ما يجهل فيقع منه تجاهلاً وإهمالاً لهذا المجهول وقد يقع منه محاربة له وذلك بسبب جهله بمقامه أو بقيمته فيكون عدوّاً له.

^٤ ورد في الحديث الشريف: «عن الصادق (عليه السلام): ثلاثة يشكون إلى الله: مسجد خراب لا يصليّ فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلق قد وقع عليه غبار لا يقرأ فيه»، كتاب قصار الجمل - المشكيني (٢: ٦٣)، ثمّ جاء في بحار الأنوار (٧٧: ١٤٠) عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «ارحموا عزيزاً ذلّ، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع في زمان جهّال».

^٥ رسالات إسلامية (موسوعة السيّد الأستاذ) المجلّد الثالث.

لإخلاصه، لأنّه تعلّم وعمل لله تعالى لا للرياء والجدل والاستطالة على الناس، فهو عظيم عند ربّه وإن كان مستضعفاً عند أهل الأرض، فبناءً على هذا لا بدّ لنا من إنصاف أهل العلم والعمل الخالص، ولا بدّ من تعظيمهم وعلى رأسهم ساداتهم وأئمّتهم معدن العلم ومهبط الوحي عليه السلام، ومن يسير على نهجهم سيّما أولادهم الذين عكسوا ذواتهم كزئب الكبرى، فلنعرف زينب بصفات الجمالية وذلك من خلال ما ورد في حقّها وشأنها.

سؤال غبي:

هناك من يسأل هذا السؤال النابع من جهل السائل والذي ينمّ عن سطحيّة عقله ووهن رأيه، فيقول: (لماذا هذا الإصرار على معرفة أهل البيت سيّما في عصرنا الحاضر عصر العلم والتطوّر التكنولوجي؟! حيث إنّ العالم أصبح قرية واحدة في عصر الكمبيوتر وأنتم لا زلتم تبحثون عن أمير المؤمنين هو النقطة التي تحت الباء، أين نحن وأين العالم ولمّ هذا الصراع على هذه الأمور التي لسنا بحاجة إليها).

الجواب: يأتي الجواب من الإمام زين العابدين عليه السلام، ولكن قبل أن نسمع جواب الإمام، أريد أن أقول إنّ من العدل الإلهي إذا تقدّم الإنسان في العلوم البشرية كما تقولون، لا بدّ أن يتقدّم ويتعمّق في العلوم الإلهية^١، كما أنّ الإنسان

^١ التعمّق في العلوم الإلهية أهمّ من التعمّق في العلوم البشرية، لأنّ الإنسان ذو بعدين، البعد المادّي والبعد الروحي، فالعلوم البشرية هي التي تهتمّ بالبعد المادّي للإنسان وهو البدن، وأمّا العلوم الإلهية تهتمّ بالبعد الروحي والإنسان كما هو واضح بروحه وعقله لا ببدنه، فلو كانت المقاييس على الأبدان لسبقنا كثير من الحيوانات في ذلك كالفيث والجمل وكلّ من هو أكبر منّا جسماً، ولكنّ المقاييس على العقول والأرواح، فلذلك صار كلّ شيء

الحاضر يبحث في المعاش، فلنا أن نبحت في المعاد، وكما أنّ العالم الغربي يبحث في العلوم البشرية ويتعمّق، لا بدّ لنا أن نبحت في العلوم الإلهية السماوية، وهذا من صميم حضارتنا الإسلامية، فنقول إنّ العلوم البشرية يتعلّمها المسلم والكافر ولكنّ العلوم الإلهية لا يتعلّمها ولا يتقدّم فيها إلاّ العالم الإلهي الربّاني، لأنّه علم شريف يحتاج إلى محلّ طاهر، فعلى هذا لو كان القلب طاهراً، لعلّم وفهم ما في القرآن الكريم وبواطنه وما فيه من المعارف، ولكن عندما يكون القلب نجساً أو شهوانياً أو حيوانياً أنّى له ذلك، فتراه يرى الحقّ باطلاً، والعلم بالعدل الثاني للقرآن وهم العترة الطاهرة ضياعاً، ومعرفتهم ترفاً فكرياً، وهذا عين الظلم للقرآن ولعدله الثاني وللعلماء بهما.

والآن نأتي إلى جواب الإمام زين العابدين عليه السلام الذي أصبح بعد كلامنا هذا شاهد صدق على قولنا، فإنّه يقول عليه السلام: «إنّ الله علم أنّه سيكون في آخر الزمان

مسخر لنا (سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) (لقمان: ٢٠)، وعلى هذا لا ينبغي للإنسان أن يدع الرتبة الكريمة (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (الإسراء: ٧٠)، وينزل إلى رتبة البهيمة (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ) (الأعراف: ٧٩)، ثمّ قد يتسافل فينزل إلى أخسّ من الأنعام لقوله: (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان: ٤٤)، والفرق الآخر بين العلوم البشرية والإلهية الذي هو السبب في دفعنا إلى التعمّق بالعلوم الإلهية هو موضوع العلوم، فتلك لا تتجاوز المادّة وهذه موضوعها خالق المادّة وهو الله تعالى، فصارت أشرف وأعلى تبعاً لموضوعها؛ لأنّ العلوم تشرف بموضوعاتها، وأمّا الارتباط بين المعرفة والعمل فسيأتي في المحاضرات القادمة.

أقوام يتعمّقون فأنزل سورة التوحيد وآيات من سورة الحديد^١ حيث المعرفة الحقة وحيث المعرفة الإلهية ولكن لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ولا يقف على هذه الحقائق إلا من كان طاهراً معنوياً لأنّ القرآن لا يمسه إلا المطهّرون، وأمّا غير المطهّّر لو أراد أن يمسه أي يعلم القرآن في بواطنه وأسراره، فإنّه لا يستطيع، بل لا ينال إلا اللعن من القرآن وهذا ما أكّده الحديث الشريف «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه».

فالمعرفة التي يريدّها لنا الله تعالى ورسوله ﷺ وأهل بيته عليه السلام هي التي تقودنا إلى كمالنا الحقيقي، وإلى سعادتنا الدنيوية والأخروية، فلا بدّ من التعمّق لكي تقف على الحقائق ولا بدّ من التعمّق لكي نكون فقهاء لأنّ الحديث الشريف يقول: «لا يكون الفقيه فقيهاً حتّى يعرف معارضض كلامنا، فإنّ لكلّ منها سبعون وجه، ولكلّ وجه لنا مخرج»، فبمعرفة هذه الوجوه تكون الفقاهاة. وأذكر لكم شاهداً على ذلك هو أستاذنا الشيخ حسن زادة آملی^٢ أنّه ذكر واحداً وتسعين معنى لقوله عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه». كما ذكرت للحديث النبوي الشريف «المؤمن مرآة المؤمن»^٣ تسعة وتسعين معنى، فبهذا يتّضح أنّ حديثاً ندریه خير من ألف حديث نرويه^٤، فنحن شيعة أهل البيت عليه السلام لا بدّ لنا من

^١ من كتاب (عليّ بن أبي طالب نقطة باء البسملة) للسيد الأستاذ.

^٢ هو من كبار العلماء ومن أساتذة الحوزة العلمية في قم المقدّسة ومن أهل السير والسلوك وتلمذ على يديه في هذا الفنّ الكثير من الفضلاء.

^٣ هو لسماحة سيّدنا الأستاذ السيد الحجّة عادل العلوي دامت بركاتة.

^٤ هذا إشارة إلى حديث ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «عليكم بالدرایات، لا بالروایات»، قصار الجمل - المشكيني (١: ١٣٨). وعنه (عليه السلام) في حديث آخر: «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه، عقل رعاية لا عقل

رواية...» نفس المصدر.

التعمق بمعرفة أهل البيت عليهم السلام وندع الدنيا لأهلها، فنقول إذا جاؤوا لنا بجديد في علومهم البشرية علينا أن نأتي بجديد وعميق في العلم الإلهي والنبوي والولوي، فإنّ زيادة المعرفة والعلم تعطي الإنسان الأدب والخضوع والخشوع والمودّة والإطاعة، ومن ثمّ ينال الإنسان القرب من الله ويفوز بسعادة الدارين. إذن لا بدّ أن نتكلّم عن زينب الكبرى ولا بدّ أن نتعمّق في شخصية زينب وأن نعرفها معرفة جمالية، لأنّ الأئمة عليهم السلام هم الذين حثّونا على ذلك وقالوا: «نزلونا عن الربوبية، وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا، وكلّ ما تقولوا فينا إنّما هو معشار عشر»^١، نعم إننا لا نبلغ كنههم كيف نصفهم ونحن في وصف الجنّة التي هي مكان لهم ولشيعتهم في حيرة؟ هذا ما أكّده الحديث الشريف: «إنّ في الجنّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^٢، فكيف نعرف سادات الجنّة^٣ لا نعرفهم إلاّ من خلال أقوالهم، فهو عليه السلام الذي قال عن نفسه: «أنا النقطة التي تحت الباء»، فبالنقطة تبدأ الحروف والأعداد، والخطّ المستقيم الذي هو أقصر خطّ ما بين

^١ بحار الأنوار ٢٦: ٦، كما للأستاذ رسالة بعنوان (جلوة من ولاية أهل البيت) يذكر فيها وجوه هذا الحديث الشريف في موسوعته (رسالات إسلامية - الجزء الخامس).

^٢ رسالات إسلامية؛ للسيد الأستاذ، الجزء الخامس، جلوة من ولاية أهل البيت: ١٣.

^٣ هذه العبارة مراده فيها الحديث الشريف في فضل الحسين (عليهما السلام) حينما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حقّهما «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة وأبوهما خيرٌ منهما» سنن ابن ماجّة في باب فضائل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وجاء في سنن الترمذي ٢: ٣٠٦، وجاء في مسند أحمد بن حنبل،

نقطتين يبدأ بنقطة وينتهي بها، وهكذا عليّ عليه السلام هو البداية والنهاية^١، فكلّ ما تقول فيه أو في ابنته زينب الكبرى هو معشار العشر من فضله وفضلها، فهي صاحبة الفضل علينا كما أنّ الأرض تثبت بوجود الحجّة ويمنه يُرزق الوري، فلذلك نقول: «اللهمّ عرّفني نفسك، فإنّك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهمّ عرّفني رسولك فإنّك إن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حجّتك، اللهمّ عرّفني حجّتك فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني، اللهمّ لا تمنى ميتة الجاهلية»^٢، فلنلتجئ إلى الله تعالى ليعرّفنا نفسه ورسوله وحجّته في زمن كثرت فيه الشبهات والإشكالات والضلالات وعدم الالتفاف حول الحقائق، اللهمّ لا تمنى ميتة الجاهلية^٣، وهذه زينب الكبرى لنقف على أعتابها ونستلهم من روحها العلم والمعرفة فهي التي تعرّفنا الله تعالى.

والحمد لله ربّ العالمين.

^١ كما للأستاذ كتاب مفصّل عن هذا الحديث «عليّ نقطة باء البسملة» وهو مطبوع.

^٢ هذا الدعاء يسمّى بدعاء الغيبة الوارد في مفاتيح الجنان للمحدّث القميّ.

^٣ هذا إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتةً جاهلية».

(المحاضرة الثالثة)

بعد البسمة والحمد والصلاة:

لا زلنا وإياكم فى رحاب عصمة الحوراء زينب عليها السلام ، لا زلنا فى روضة العلم والنور، وذكرنا فى ما سبق شيئاً من المعرفة وأهميتها فى حياة الإنسان، وقلنا بأنّها كلّى تشكيكى أى أنّ لها مراتب طويلة وعرضية، وتختلف من حيث الشدّة والضعف.

وهذه المراتب التى تمّ ذكرها هى أمّهات المراتب إذا صحّ التعبير، فأولها المرتبة الجلالية، ثمّ المعرفة الجمالية، وآخرها المعرفة الكمالية.

فعندما نريد تعريف أيّ شىء لا بدّ أن نعرفه بالمعرفة الجلالية أى بذكر صفاته السلبية وذكر حدوده، وإذا أردنا أن نعرفه بالمعرفة الجمالية فنعرفه بذكر صفاته الجمالية، وإذا أردنا أن نقف على كنهه وذاته فهذا يتمّ بالمعرفة الكمالية.

وفى دعاء سحر شهر رمضان المبارك إشارة إلى هذه المعارف الثلاثة فى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «اللهمّ إنّي أسألك من جلالك بأجلّه وكلّ جلالك جليل، اللهمّ إنّي أسألك بجلالك كلّه، اللهمّ إنّي أسألك من جمالك بأجمله وكلّ جمالك جميل اللهمّ إنّي أسألك بجمالك كلّه، اللهمّ إنّي أسألك من كمالك بأكمله وكلّ كمالك كامل اللهمّ

إني أسألك بكمالك كله^١، وذكرنا أيضاً أنه كما تتقدم البشرية في العلوم الحديثة والعصرية، فمن العدل الإلهي أن يتقدم العلماء الإلهيون في العلوم الإلهية أيضاً، فإذا لمسنا تأخراً في العلوم الإلهية فليس هذا التأخر من جهة الفاعل وإنما هو من جهة القابل، أي أن القصور في المتلقي وإلا فالعلماء الإلهيون على درجة عالية من الفاعلية للفيض^٢ على من يريد معرفة العلوم الإلهية، وذكرنا أيضاً أن للإنسان علوم معاشية، فلا بد له من علوم معادية أيضاً، وقلنا إن العلوم المعادية تنحصر بحسب ما جاء في الحديث الشريف في علوم ثلاثة^٣، تبعاً لحاجة الإنسان إليها، فالعلم الأول الذي هو علم العقائد والذي يسمّى عند أهل الفن بعلم الكلام^٤، هو الذي يعتني بكمال العقل وتربيته والترقي فيه إلى الدرجات العلى، والعلم الثاني هو علم الأخلاق وهذا يهتم ببناء الروح الإنسانية وتهذيبها وصيقة القلب وتزكيتته، والعلم الثالث هو علم الفقه فوظيفته تربية البعد المادي والروحي معاً

^١ مفاتيح الجنان: أعمال شهر رمضان، دعاء السحر.

^٢ إن العلماء لهم القدرة على العطاء والإفاضة على من يريد تحصيل هذه العلوم بشرط استعداده لتلقيها.

^٣ إشارة إلى الحديث الذي تقدم «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة، وما خلاهن فضل...».

^٤ عرّف علم العقائد بعلم الكلام لدواعي متعددة منها أن العلماء عندما بحثوا في أن كلام الله تعالى هل هو مخلوق أو قديم وهل إن كلامه كلام نفسي أو إيجاد الكلام في الأشياء وصار في هذه الأبحاث خلاف كبير أدى إلى محاربة بعضهم البعض فسُمي البحث في العقائد بعلم الكلام للغلبة في ذلك، وهناك وجوه ستة أخرى ذكرها سيدنا الأستاذ في (دروس اليقين في معرفة أصول الدين) المجلد الأول من موسوعته الكبرى (رسالات إسلامية) فراجع.

للإنسان أي يهتم بتربية البدن وفيه نصيب للروح والعقل أيضاً.
وعلم العقائد كما تعلمون هو علم أصول الدين أي يعتني بمعرفة المبدأ
والمعاد^١ وما بينهما من النبوة والإمامة ومن صفات الله تعالى كالعدل الإلهي، أي
يكون البحث فيه عن الله تعالى وعن فعله وعن إرسال الرسل للناس وإنزال الكتب
ونصب الإمام من قبل الله تعالى، وعلم الأخلاق: يبحث عن الأخلاق الحميدة
والحث عليها وذكر آثارها الدنيوية والأخروية، وذكر الأخلاق الذميمة والنهي
عنها والترفع عن التلبس بها وذكر آثارها أيضاً، وعلم الفقه: يبحث عن فروع
الدين كالصلاة والصوم والحج وغيرها وبيان فلسفة هذه التكاليف ومعرفة آثارها
كالإقتصادية المتمثلة بدفع الزكاة وأداء الخمس وكالاجتماعية المتولدة عن الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، وكذلك يبحث عن المعاملات بالمعنى
الأعم والأخص.

فهذه العلوم التي فصلنا الحديث فيها هي العلوم التي تنفع الإنسان فيما لو
علمها، وتضره فيما لو جهلها. ربما يسأل السائل لماذا هذا التعمق في هذه العلوم؟
فنجيب عن هذا التساؤل، بأننا قد ذكرنا قول الإمام السجّاد عليه السلام وذكرنا أنّ من
العدل الإلهي أن تتساوى على أقلّ التقادير كفتي العلم البشري والعلم الإلهي، فإذا
استطاع الإنسان من خلال علومه البشرية تسخير الفضاء والصعود إلى الكواكب
الأخرى، فلا بدّ له أيضاً من تسخير الروح الإنسانية والصعود فيها إلى أعلى

^١ المبدأ والمعاد هما مصطلحان في علم الكلام ويراد بالأول إثبات وجود وتوحيد الله تعالى وما يتعلّق ببحث التوحيد ويراد بالثاني ما يتعلّق بيوم الحساب ويوم المعاد الذي ترجع فيه الناس للحساب.

درجات الكمال والرفعة، فإذن لا بدّ من التعمّق في أصول الدين وفي الأخلاق وفي الفقه، ولا بدّ من التعمّق في معرفة القرآن الكريم وكلمات أهل البيت عليهم السلام، فهذه المعرفة وبهذا العمق يزداد الإنسان عملاً، فإنّه جاء في الحديث الشريف: «المعرفة تدلّ الإنسان على العمل والعمل على المعرفة»^١. فعلى هذا القول يتّضح لنا أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين معرفة الإنسان وعمله.

وإذا عرفنا السيّدة زينب عليها السلام بمعرفة جمالية بعدما كنّا نعرفها بمعرفة جلالية، تلك المعرفة التي يعرفها بها الوضيع والشريف والجاهل والعالم، وتجد الجميع عندما يدخل إلى حرّمتها يعظّمها ويحترمها، ولو كان إنساناً غير متأدّب بالآداب الدينية، فراه يقبل الضريح والباب حبّاً وتعظيماً ولسان حاله يقول:

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

نراه يعرف عظمة زينب وأهل زينب عليهم السلام، ولكن هذه الزيارة السطحيّة غير كافية في أن تمنع هذا الإنسان من المعصية، لأنّها بُنيت على معرفة جلالية، ولذلك تجد ذلك الرجل المسيحي^٢ عندما يكتب عن أمير المؤمنين عليه السلام ويعرف أنّ عليّاً رجلاً عظيماً شديد العدل ولشدة عدله قتل في المحراب، لكنّه لا يترك مسيحيتّه، ولم يتمسكّ بنهج علي عليه السلام مع أنّه يعترف بعظمة علي وسموّ علي وجلال علي (عليه السلام)، إلاّ أنّه يبقى على مسيحيتّه، فمعرفة هذا الرجل هي معرفة

^١ عن حسين الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «لا يقبل الله عملاً إلاّ بمعرفة، ولا معرفة إلاّ بعمل، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل...»، الكافي ١: ٩٤.

^٢ الكاتب العربي المسيحي المعروف جورج جرداق في كتابه (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية).

جلالية، ثمّ تراه يقول في حقّ نهج البلاغة إنّهُ كلام دون الخالق وفوق كلام المخلوق، ولكن مع ذلك لا تجده يوالي أمير المؤمنين عليه السلام في عقيدته، ولا يتبعه في سلوكه وأفعاله، فهذا دليل على أنّ معرفته لم تصل إلى رتبة المعرفة الجمالية التي لها الأثر الكبير في علاقة العارف بأهل البيت عليهم السلام، وهكذا معرفة البعض لزینب عليها السلام فإنّه يعرفها أنّها شقيقة الإمام الحسين عليه السلام وهي البطلّة التي تحدّث الطغاة في عصرها وعلمت الأجيال كيف يعيش الإنسان حرّاً، وهي التي كان لها الدور الأكبر والأوسع في نشر ثورة الحسين عليه السلام لكنّه مع ذلك لا يتورّع عن النظر إلى المرأة الأجنبية وهو في حرم زينب عليها السلام، وهذا ينطبق على كلّ عارف بزینب معرفة جلالية إذا لم يكن هناك ورع ومانع للمعصية، ومن جهة أخرى لو خلّيناه ومعرفته الجلالية فإنّها غير كافية عن منعه من ارتكاب المعصية.

إنّ المذیاع ومكبرات الصوت في الصحن والحرم الشريف يكرّر مراراً بقوله: على الشباب أن لا يكونوا في قسم النساء من الصحن الشريف، لهو دليل على أنّ الداخل إلى الحرم الشريف لا يراه حرماً ولا يراه شريفاً، وإلاّ كيف يجرؤ على المعصية، إنّهُ لشيء عجيب، مسلم غيور يحتاج إلى منعه عن سوء الأدب في الحرم الشريف، إلى تنبيهه، بل إلى وجود رجال شرطة وأمن، من هذا الذي يحتاج إلى ذلك؟ المسلم الغيور لا يحتاج إلى ذلك، والشيعي الحقيقي لا يحتاج إلى ذلك، مع أنّ الكلّ يحترم زينب عليها السلام لكنّ المعرفة متفاوتة، فمنهم يعرفها بمعرفة جلالية فقط، فلذلك لا يتورّع عن المعصية، ولو كان عارفاً بحقّها معرفه جمالية لصدرت منه أعلى درجات التقديس لصاحبة المكان، وتراه يدخل إلى حضرتها خاشعاً متأدّباً بأداب المكان، وتتجلّى فيه الآية الكريمة:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ

اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴿١﴾

فهذا الغضُّ البصري فيه دلالة على أنَّ الداخل عارف بجمال زينب عليها السلام وعلو قدرها، لكن هل يستطيع الإنسان أن يعرف ذات زينب وحققتها؟ نقول قد يرتقي الإنسان إلى معرفة زينب عليها السلام إلى أعلى درجات المعرفة الجمالية ولكنه ربما لا يمكن له أن يقف على الذات الزينية إلا من كان محيطاً بها كالمعصومين عليهم السلام.

فإذا عرف الإنسان أنَّ المعرفة تدلُّه على العمل، وأنَّ هناك ارتباط وثيق بين المعرفة والعمل، تجده حينها يغتتم كلَّ الفرص لينهل من المعارف الإلهية لما يؤهله أن يكون الأفضل في يوم القيامة، لأنَّ الفضل على درجة المعرفة، وهذا ما أشار إليه إمامنا الصادق عليه السلام بقوله: «ليس الفضل بالصلاة والصوم والحجِّ وإنما الفضل بالمعرفة»^٢ فربما يحجُّ المرء ولا يعرف الحقَّ وربما يحجُّ ولا يعرف إمام زمانه، فمثل هذا الحجِّ لا ينفع، لأنَّ الله سبحانه ابتلى الإنسان ليرى من هو أحسنهم عملاً لا من هو أكثرهم عملاً، فالتعرُّف إلى كيف العمل لا إلى كمَّ العمل، حتَّى أنه ورد في كتاب الكافي أنه يستحبُّ قلة العمل^٣، لأنَّ كثرة العمل ربما تؤدِّي إلى العجب أو

^١ النور: ٣٠ - ٣١.

^٢ إشارة إلى الحديث الشريف في ميزان الحكمة - كلمة عرف.

^٣ إشارة إلى الحديث الشريف عن حنان بن سدير، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ

إذا أحبَّ عبداً فعمل قليلاً جزاه بالقليل الكثير... أصول الكافي ٢: ٩٢، وعنه (عليه السلام) عن علي بن الحسين

(عليه السلام) يقول: «إنِّي لأحبُّ أن أداوم على العمل وإن قلَّ»، وهناك أحاديث كثيرة في هذا الباب - أصول

إلى الرياء والسمعة، ولهذا أيضاً يعتمد علماء الأخلاق على حسن العمل ولكن لكي يكون العمل حسناً لا بدّ من شروط، وأهمّ هذه الشروط حسن العقيدة، أي أنّ أوّل الشروط: الإيمان حيث أنّ العمل بلا إيمان لا ثواب فيه ولا قيمة له^١، فإذا كفر يحبط العمل مهما كان هذا العمل كثيراً وكبيراً^٢، وخير شاهد على ذلك ما حصل للشيطان ذلك العابد الذي تعجّبت من عبادته الملائكة إلاّ أنّه في لحظة غرور وعجب أنهى كلّ شيء، واضطرّ لمطالبة الله تعالى بأجره الدنيوي، فأعطاه الله تعالى أجره حيث أنظره إلى يوم معلوم^٣، وهكذا كلّ من يعمل عملاً جباراً لا ثواب له في الآخرة طالما هو كافر، وترى ذلك واضحاً في هذا العالم الذي خدم البشرية خدمة لا يستهان بها وأقصد بذلك (أديسون) مكتشف الكهرباء، إنّما أجره حصل عليه في الدنيا، فكلمّا بقيت الكهرباء ونفعت بقيت ذكرى أديسون قائمة إلى حين، وأمّا في يوم القيامة فإنّه يحبط العمل بالكفر، لأنّ حسن العمل مشروط بالإيمان.

^١ في هذا إشارة إلى الآيات الكريمة في سورة العصر حيث تقول السورة: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (العصر: ١ - ٣)، ولم تكتف الصورة بقوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، كما أنّها لم تكتف فقط بالإيمان بل أوردت ذلك بالعمل الصالح (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) بل (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

^٢ إشارة إلى الحديث الشريف عن أبي أمية يوسف بن ثابت، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «لا يضرّ مع الإيمان عمل، ولا ينفع مع الكفر عمل...» الكافي ٢: ٤٥٣.

^٣ إشارة إلى الآية الكريمة التي تبين المحاورّة بين الله سبحانه والشيطان الذي طلب من ربّه أجره فقال كما في الآية الشريفة: (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ) (الأعراف: ١٤ - ١٥).

الشرط الثاني - العلم والمعرفة: فإنَّ العالم خيرٌ من العابد الجاهل^١ حتَّى لو عبد الله تعالى ليل نهار فإنَّ عمله لا يرتقي إلى مستوى عمل العالم، فلذلك قال أمير المؤمنين رُوحِي فداه: «قسم ظهري اثنان: جاهل متنسك، وعالم متهتك»، فترى الذي قسم ظهر أمير المؤمنين عليه السلام ذلك العابد الجاهل لأنَّ حسن العمل بالمعرفة، وحسن العقيدة بالمعرفة، والفضل بالمعرفة.

الشرط الثالث - التقوى: لأنَّ الله تعالى لا يتقبَّل من الفاسق:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^٢.

وإن كان العمل مسقطاً للتكليف، ولكن قبول العمل غير سقوط وجوبه، فصلاته قد أسقطت التكليف لكن لا تكون مقبولة^٣، ولا ناهية عن الفحشاء والمنكر، ولا معراجاً إلى السماء، ولا تكون هذه الصلاة الفارغة عن المضمون قرباناً، لأنَّ الصلاة قربان كلِّ تقويٍّ ومعراج كلِّ مؤمن، ففي هذه الصلاة الفارغة لا يحسَّ بالمعراجية إلى الله سبحانه.

^١ إشارة إلى أحاديث كثيرة في هذا المعنى، ومنها قوله (صلى الله عليه وآله): «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر»، قصار الجمل للمشكيني ٢: ٦٢، ولا يكون للعالم فضل على العابد إلا إذا كان العابد ليس بعالم.

^٢ المائدة: ٢٧.

^٣ إشارة إلى الأحاديث التي تبين أنَّ الصلاة إذا كانت فارغة المضمون ليس لها قيمة تذكر كما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»، قال الصلاة حجة الله وذلك أنَّها تحجز المصلِّي عن المعاصي ما دام في صلاته. وكما في قوله (عليه السلام): «أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل

سائر عمله وإذا ردَّت ردَّ عليه سائر عمله» - قصار الجمل ١: ٣٨٧ - ٣٨٨.

إذا عرج بالنبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة إلى السماء، فإنَّ المؤمن يعرج في كلِّ صلاة إلى الله تعالى، وهذا ما يؤكده الحديث الشريف: «الصلاة معراج المؤمن»، فالنبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرج به إلى السماء ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى، وما كذب الفؤاد ما رأى.

فلماذا لا نرى في صلاتنا شيئاً، إذا كانت الصلاة معراج المؤمن؟

فالجواب واضح جداً وهو أنَّ الحجب التي بيننا وبين الملكوت هي الحائل دون الرؤية. ونجد أنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام حينما طلب من ربه رؤية الملكوت، تفضّل عليه ربه وأراه ملكوت السماوات والأرض^١ أي أراه ظاهر وباطن كلِّ شيء، لأنَّ لكلِّ شيء ظاهر وباطن حتّى الجنّة والنار لهما ظاهر وباطن، مع أنَّ من الأشياء ظاهره الرحمة وباطنه الغضب، وربما العكس ظاهره الغضب وباطنه الرحمة.

فظاهر هذه الأشياء التي أمامنا تسمّى بالملك وباطنها يسمّى بالملكوت، ولهذا نرى الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه يقول: «اللهم أرنا حقائق الأشياء»^٢، يعني اللهم أرنا ملكوت الأشياء وأرنا هذه الحالة التي تعمّ جميع الكون وهي تسييح هذا الكون لبارئه، إلّا أنّنا لا نفقه تسييحهم بسبب الذنوب التي صارت حجاباً بيننا وبين هذا التسييح، فكلُّ شيء يسبح ويهلل لله سبحانه وتعالى، وذلك في سيره التكاملي في حركته الجوهرية، وكلُّ شيء يمشي لكي يصل إلى معشوقه الأوّل وهو الله تعالى، وهذا التسييح هو مقام الجلال، والحمد لله هو مقام

^١ إشارة إلى الآية الكريمة: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (الأنعام: ٧٥).

^٢ إشارة إلى الدعاء الوارد في الصحيفة السجّادية للإمام زين العابدين (عليه السلام).

الجمال، والشواهد والقصص في هذا الباب كثيرة، فإنَّ أحد أولياء الله تعالى يسمع حفيف الشجر ويسمع من خلاله التهليل والتسبيح، وذلك من ضرب الورق بعضه ببعض، فيمكن للإنسان أن يصل إلى هذه المرحلة، فلا تعجب من ذلك، فقد اتفق الفريقان - السنة والشيعة - على أنَّ الرسول الأعظم ﷺ قال في الحديث القدسي عن الله تعالى: «العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته أكون سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش»، فيكون سمعه سمع الله، وبصره بصر الله، ويده يد الله، ويد الله فوق أيديهم، ينقل أنَّ شاباً اشتكى عند عمر ابن الخطَّاب على أبي الحسن عليِّ بن أبي طالب أسد الله الغالب عليه بأنَّه ضربه في السوق فاحمرَّ وجهه، فقال عمر: يا أبا الحسن، لِمَ ضربته؟ قال: لأنَّه نظر إلى امرأة أجنبية ورأيت ذلك منه، فضربته كي يمتنع عن هذا، فقال عمر بن الخطَّاب: عين الله رأت ويد الله ضربت. هذه معرفة عمريَّة، فكيف بالمعرفة العلويَّة، فأكثر أولياء الله وصلوا إلى هذا المقام، وكلُّ أحد له أن يصل إلى هذه المرحلة سيِّما الشباب، فإنَّه يكفيهم التحرك بقدمين: القدم الأولى أن يضعها على النفس^١، والقدم الثانية في الجنَّة، فإنَّ في مخالفة الهوى ومخالفة النفس الجنَّة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

^١ مراد السيّد الأستاذ أن يسحق المؤمن العاقل هوى النفس ويضع جميع شهواتها تحت قدمه لكي ينتصر على

هواه ويخالفه، فإنَّ في مخالفته دخول الجنَّة، وكما في الآية الشريفة: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات: ٤٠ - ٤١).

المأوى^١

والجنة يمكن رؤيتها لأنها من الملكوت، وكلما وصل الإنسان إلى الرتبة التي تؤهله لرؤية الملكوت فإنه يراها، وخير شاهد على ذلك الرجل الذي جاء إلى أستاذنا عليه السلام وهو رجل قروي يقول: عندما قمت إلى صلاة الليل نظرت إلى السماء وإذا بي أرى عرش الله تعالى، وقطعاً إنه رأى العرش المسمى وليس العرش الإسمي^٢، وهذا يتم بشروطه، التي هي حسن العمل، والعلم والمعرفة، والتقوى، لأن الله سبحانه إنما يتقبل من المتقين.

الشرط الرابع - الولاية: جاء في الحديث الصحيح في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام لابن المغازلي: «لو عبد الإنسان ربه بين الركن والمقام في الليل والنهار حتى يكون كالشنّ البالي قائماً ليله صائماً نهاره ولم يوالي علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه لا يقبل منه»^٣، فحسن العمل ولاية أهل البيت عليهم السلام، فهذا هو الذي جعل العدو يشهد لعلي عليه السلام بقوله^٤:

قسماً بمكة والحظيم وزمزم والراقصات وسعيهنّ إلى منى
بغض الوصيّ علامة مكتوبة كتبت على جبهات أولاد الزنى
من لم يوالي في البرية حيدراً سيان عند الله صلى أم زنى

^١ النازعات: ٤٠ - ٤١.

^٢ تفصيله في كتاب (الإمام الحسين عليه السلام) في عرش الله) للسيد المحاضر، وهو مطبوع.

^٣ مناقب علي بن أبي طالب؛ لابن المغازلي، وللسيد الأستاذ بحث مفصل عن الولاية في كتابه القيم (هذه هي الولاية) المجلد الخامس من موسوعة (رسالات إسلامية) فراجع.

^٤ قال ذلك أحد العباسيين، وهو الناصر العباسي.

فحسن العمل يعتمد على المعرفة والتقوى والإيمان والولاية، إذن من عرف أهل البيت عليهم السلام حق المعرفة فإنه لا يرتكب ذنباً، وكذلك من عرف الله تعالى وأنه يرى عمله كما أن رسوله والمؤمنون الذين هم أهل البيت عليهم السلام يرون الأعمال^١، وقد يراه أيضاً الأمثل فالأمثل أي من كان قريباً من الأئمة كزينب الكبرى وإن كانت هذه الرؤية جزئية وليست كلية، فإنه لا يقدم على أيّ ذنب حياءً وخجلاً ممن يرى، فإذا عرفنا أن الإمام الحجّة عليه السلام تُعرض عليه الأعمال في كلّ خميس واثنين^٢، وتيقننا ذلك وآمنا به، فعندها لا يمكن أن يصدر منا ذنباً.

وهكذا فإنّ من يدخل إلى حرم السيدة زينب الكبرى عليها السلام وهو يعلم أنّها تراه، فإنه لا يعصي الله سبحانه خجلاً منها واحتراماً لها، فتكون زينب عليها السلام سبباً في منعه عن المعصية، لأنّ الدخول في رحابها يجعل الداخل في عالم آخر، ولكن لو دخل إليها ومع كلّ ذلك عصى ربّه وأساء الأدب في الحرم الزينبي، فهذا مثله مثل أولئك الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما لنا يا رسول الله عندما نجلس إليك وتحدثنا عن الدنيا نزهد فيها ونتوجّه إلى الله، ولكن إذا خرجنا منك ولقينا

^١ إشارة إلى الآية الشريفة: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: ١٠٥).

^٢ إشارة إلى الحديث الشريف عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «تعرض أعمال الناس كلّ جهة مرتين، يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكلّ عبد مؤمن إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء، فقال اتركوا هذين حتى يصطلحا»، قصار الجمل: ٧٢. وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى عرض العمل في يومي الخميس والاثنين.

الأهل والأولاد نسينا كلّ ذلك فأدركنا يا رسول الله لعلنا صرنا من المنافقين، فأجابهم النبي ﷺ: «لولا هيام الشياطين على قلوبكم لرأيتم ما أرى، ولسمعتم ما أسمع».

ومن الشواهد على هذا وصيّة سيّدنا الأستاذ المرعشي النجفي رحمة الله عليه إلى ولده السيّد محمود، يقول: «ولدي محمود، إنني من خلال الأوراد والأذكار وصلت إلى مقام أسمع ما لا يسمعه غيري، وأرى ما لا يراه غيري»^١، وكثير معي عاصروا هذا السيّد الجليل فليس الكلام عن هذا من المثاليات، بل هو قدوة حاضرة، فإذن لا بدّ من المعرفة والعمق فيها لنزداد عملاً حسناً، ونحصل على سلوك أخلاقي رفيع، ولكي نزداد خضوعاً وخشوعاً وتقرباً إلى الله تعالى، لا بدّ من معرفة أهل البيت ﷺ والتعمّق في معرفتهم ومعرفة مقامهم الشامخ، لأنهم الوسيلة إلى الله تعالى، ولكن إنّما تتمّ المعرفة من خلالهم، بل حتّى لو أردنا معرفة القرآن الكريم فلا بدّ أن يكون من طريقهم وهذا ما يؤيّدته حديث الثقلين المتواتر عند الفريقين في أنّ النبي ﷺ قال: «إنني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»^٢، فهما لن يفترقا في كلّ شيء فمتى ما كان القرآن الكريم كان ترجمانه معه، لأنّ القرآن الكريم هو القرآن الصامت التدويني، وأهل البيت ﷺ

^١ كما جاء في كتاب السيّد الأستاذ العلوي (قبسات من حياة سيّدنا الأستاذ).

^٢ هذا الحديث جاء في كتب الفريقين، أخرجه الترمذي ٥: ٣٣٨، الحديث ٣٨٧٤، وفي ينابيع المودة: ٣٣، كنز العمال: ١٥٣، وغيرها من الكتب السنّية المعتمدة، وهو عندنا من باب أولى.

هم القرآن الناطق العلمي^١، وإني أرى أنّ القرآن كان قبل خلق الإنسان، ويدلّ على ذلك ما جاء في سورة الرحمن في قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^٢.

فالإنسان يكون بين علمين علم القرآن وعلم البيان، بل إنّ الإنسان خلق بين علم القرآن وعلم بيان القرآن، ولكن لا بدّ للقرآن من مبينٍ ألا وهم أهل البيت عليهم السلام ومن هذا حذوهم من العلماء الصالحين، وبما أنّنا عرفنا أنّ أهل البيت لن يفترقوا عن القرآن، فيلزم أن يكونوا مع القرآن في أوّل وجوده، وبهذا يكونوا قد سبقوا الخلق بوجودهم.

فإذا اردنا أن نعرف القرآن فلا بدّ أن يكون من خلالهم عليهم السلام ونعرفهم من خلال القرآن، ولا نقول كما قال غيرنا حسبنا كتاب الله، ولا نقول كما قالوا: حسبنا أهل البيت عليهم السلام^٣، بل نقول القرآن مع أهل البيت لن يفترقا، ولهذا الترابط الوثيق نجد أهل البيت عليهم السلام يحثّون شيعتهم على عرض أقوالهم وأحاديثهم على القرآن الكريم، فما وافق القرآن أخذ به، وما خالفه نضرب به عرض الجدار،

^١ لأنّ للقرآن مراتب ووجودات متعدّدة ومن مراتبه القرآن العيني الذي يترتب عليه الأثر وهم أهل البيت (عليهم السلام).

^٢ الرحمن: ١ - ٤.

^٣ أوّل من قال ذلك هو عمر بن الخطّاب في مرض النبيّ (صلى الله عليه وآله) عندما طلب منهم (صلى الله عليه وآله) دواة وكتف ليكتب لهم كتاب وحصل نزاع بين القوم بين من يؤيد إحضار الدواة والكتف وبين من لا يؤيد ذلك، فحسمها عمر بقوله هذا: «حسبنا كتاب الله»، أي لا حاجة بنا إلى غيره، ولا نقول إنّ أهل البيت (عليهم السلام) يغنوننا عن كتاب الله تعالى لأنّهما لن يفترقا فلا بدّ من التمسك بهما لا بأحدهما دون الآخر.

وأنه من زخرف القول، وباطل لم يصدر عنهم، لأنهم لا يخالفون القرآن^١، وهذا معنى قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عندما رفع القرآن على الرماح في صفين: «أنا القرآن الناطق»، وهذا قرآن صامت مع ما له من الإكرام والعزّة، فإذا عرفنا هذا الكلام سيبدو بنا الشوق للقاء إمامنا الحجّة عليه السلام هذا الأمل الوحيد للشيعي الخالص المخلص، بل أمنية كل مؤمن أن يرى مولاه وإمام زمانه عليه السلام ولكن إذا منعتك الموانع^٢ من رؤيته فهذا هو شريكه بين يديك وهو كتاب الله العزيز عدل صاحب الزمان، فلنشاق إليه ونقوم له إجلالا كما نقوم عند ذكر صاحب الزمان، فإذا كان مدلول قيامك لإمامك الحجّة (عجل الله فرجه الشريف) هو أنك منتظر خروجه، فإنّ هذا القرآن لا بدّ من احترامه والقيام له، فإنّه كتاب عزيز كريم، ولذا نجد السيّد الطباطبائي صاحب تفسير الميزان كان لا يبيت في مكان فيه قرآن، ولا يمدّ رجله في مكان فيه قرآن أبداً في طوال حياته تعظيماً للقرآن الكريم. فإذا أردنا أن نحترم القرآن لا بدّ من تأدية حقّه، وهو أن نتلوا منه في كلّ يوم على أقلّ

^١ ورد عنهم أحاديث كثيرة تحثّ شيعتهم على عرض ما ورد عنهم على كتاب الله تعالى لكي يمتاز ما كان عنهم عن ما وضع من قبل الواضعين لأنّ حديثهم لا يختلف عن ما في القرآن الكريم ومن هذه الأحاديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نور، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه» (بحار الأنوار ٢: ٢٢٧)، وهناك أحاديث ورد فيها كلمة «فاضربوا به عرض الجدار» «فهو زخرف لم نقله»، والكلّ يؤدّي نفس المعنى.

^٢ هذه الموانع هي الذنوب والمعاصي التي أشار إليها الإمام الحجّة (عج) في وصاياها لشيعته فقال في هذه الفقرة: «ولو أنّ أشياعنا وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخّر عنهم اليمن بلقائنا».

التقادير خمسين آية كما ورد في الروايات الشريفة^١، فنأنس بالقرآن وبأهله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقد نزل الوحي في بيوتهم، ألا وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، ومن آل محمد زينب الكبرى روي فداها، ولا يزال الحديث عن مقام من مقاماتها الشامخة، ألا وهي عصمتها، وهذا ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

^١ عن حريز عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «القرآن عهد الله إلى خلقه، فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في

عهده وأن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية» أصول الكافي ٢: ٥٨٢.

(المحاضرة الرابعة)

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيّد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم ومنكري فضائلهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين.
لا زلنا وإياكم في رحاب السيّدة زينب الكبرى في رحاب روضة العلم والنور.

ولقد كان الحديث عن أحد مقاماتها إلّا وهو عصمتها، فهل إنّ زينب الكبرى معصومة؟

وهل هناك فرق بين عصمتها وعصمة أمّها الصديّقة الكبرى فاطمة ؑ؟

هذا ما ستحدّث عنه اليوم إن شاء الله تعالى.

قبل الوصول في حديثنا إلى عصمة السيّدة زينب ؑ لا بدّ لنا أن نتحدّث

عن عصمة أمّها الصديّقة الطاهرة إجمالاً.

فنقول:

إنّ فاطمة الزهراء ؑ تتجلّى فيها العصمة الإلهية الكبرى، لأنّ الله تعالى له

الأسماء الحسنی والصفات العلیا، فعند خلقه للإنسان أشار إلى فلسفة خلقته،

ويبين أنّ المراد من خلق الإنسان هو تكامل هذا الإنسان^١، وإنّ هذا التكامل لا يتمّ إلاّ بالرحمة والعلم والعبادة فيصير الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض ويكون مظهرًا لأسمائه وصفاته وقال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^٢.

وهذه الخلافة هي خلافة الأسماء والصفات^٣.

فالخلافة تارة تكون مادّية وأخرى أخلاقية، وخلافة الإنسان لله تعالى هي من القسم الثاني ونسمّيها بخلافة الأسماء والصفات لأنّ الله تعالى ذات محيطة بكلّ شيء ولا يحاط به، فمعرفة ذاته محال، بل تقود إلى الحيرة والضلال كما ورد في الحديث الشريف^٤، إلاّ أنّ لنا أن نعرفه من خلال أسمائه وصفاته، وأمرنا الشارع بذلك فلنا أن نتفكّر بصفاته الذاتية والفعلية وكونه عالماً وقادراً وحيّاً، وأنّ

^١ إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)، ومن تفاسير كلمة (ليعبدون) أي ليعرفون، فإنّ المعرفة هي أساس العبادة لأنّ «أولّ الدين معرفته» وبالمعرفة يتكامل الإنسان.

^٢ البقرة: ٣٠، (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، وفي الآية ٣٦ من سورة ص ما يدلّ على الخلافة الإلهية.

^٣ مراده من خلافة الأسماء والصفات هو التخلّق بأخلاق الله تعالى كما ورد في الحديث الداعي إلى التخلّق بأخلاق الله تعالى وعكس صفاته وأسمائه فيكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يحمل كلّ صفات الله تعالى فاستحقّ أن يكون خليفته في ذلك.

^٤ إشارة إلى الحديث الشريف: «عن أبي جعفر (عليه السلام): تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله، فإنّ الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلاّ تحييراً» الكافي، الجزء الأول، باب التوحيد.

هذه الصفات تتجلى في خلقه فترى الخلق كله يسبح بحمده^١، فمثلا نرى صفة الحياة تتجلى في خلقه، ولكن هذه الحياة لها مراتب متعددة، كالرتبة الجمادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والملائكية والرتبة العليا هي الرتبة الإلهية، وهكذا قدرته وكل أسمائه وصفاته تتجلى وتظهر في هذا الكون الذي هو مرآة عاكسة لصفات الله تعالى، والذي يجمع هذه الصفات ويعكسها كلها وتتجلى فيه هو الإنسان الكامل فيسمى بجامع الجمع^٢، لأنّ هناك من المخلوقات ما يتجلى فيه صفة واحدة من صفات الله تعالى وبعضها أكثر من ذلك وكلّ بحسبه، فالإنسان الكامل هو المخلوق الوحيد الذي تتجلى فيه ألف وواحد من الصفات، وتسعة وتسعون منها تسمى بالأسماء الحسنى لورودها في القرآن الكريم، وهذه الأسماء لها الأثر التامّ عند الدعاء بها، ولكن لا بدّ لنا أن نعرف من هو الإنسان الكامل؟ فيكون الجواب هو من كانت له الرتبة العليا والسيادة المطلقة على الخلق ألا وهو النبي الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ أي أنّ هذه الأسماء والصفات تتجلى كاملة في الحقيقة المحمّدية، وهذه الحقيقة تتجلى في الأنبياء والأئمة عليهم السلام ثمّ العلماء ثمّ الأمثل فالأمثل. فلهذا صار الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض الذي يحمل

^١ إشارة إلى الآيات القرآنية الكثيرة التي تصرّح بأنّ كلّ ما في الوجود يسبح لله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (الإسراء: ٤٤)، وهذا ما ورد في سورة الحشر أيضاً (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الحشر: ١)، وهذه الآية تكرّرت في سورة الصف - سورة الحديد - وسورة الجمعة بزيادة.

^٢ سمّي بجامع الجمع لأنّه جامع لجميع الصفات الإلهية والأسماء الحسنى.

أسماء وصفات الله تعالى.

ومن أسماء وصفات الله تعالى اسم الطاهر والمعصوم أي المنزه عن كل نقص وقبيح، مع أنه قادر على فعل القبيح، إلا أنه لا يفعل القبيح وهذا ما يعتقدّه الشيعة في قبال اعتقاد الأشاعرة والمعتزلة^١؛ لأنه بفعله للقبيح يكون محتاجاً أو جاهلاً أو ناقصاً، ولكنّه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فالله تعالى هو الطاهر مطلقاً والمعصوم مطلقاً بالقياس إلى غيره أي الممكن الذي تحدّه بداية ونهاية، والذي تكون العصمة فيه أمراً نسبياً، بينما تكون في الله تعالى مطلقة، لأنه أزلي أبدي سرمدي وهو الخالق للزمن وما وراء الزمن.

وبناءً على ما سبق فإنّ العصمة والطهارة تتجلّى في الأنبياء وفي الأئمة عليهم السلام، لأنّ مسؤولية الجميع واحدة ووظيفتهم واحدة، فالنبيّ مسؤول عن هداية البشر والإمام مسؤول عن حفظ هذه الهداية وإدامتها، فتتجلّى العصمة الإلهية في الأنبياء، وتتجلّى العصمة الإلهية والنبوية في الأئمة، فعلى هذا لا بدّ للخليفة الذي

^١ هناك ثلاثة أقوال في المسألة:

الأشاعرة: قالوا بأنّه تعالى فاعل لكلّ فعل حتّى القبيح ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، فتعالى الله عن ذلك. المعتزلة: فراراً من هذا القول قالوا: القبيح فعل صادر من الإنسان وليس لله تعالى أيّ دخل فيه فعزلوا الله تعالى عن سلطانه، فلزم من ذلك النقص والنقص قبيح. الإمامية: يقولون إنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير حتّى على فعل القبيح، لكنّه لا يفعل القبيح لعدم وجود الداعي، لأنه ليس بجاهل أو محتاج أو عابث أو مجبور على فعل القبيح، فإذا انتفى الداعي لفعل القبيح امتنع وقوعه.

(وهناك تفصيل في المسألة المذكور في محله).

يلي الرسول في مهمته الإلهية وحفظ الرسالة، أن يكون معصوماً، لأنه الحافظ للشرعة التي جاء بها النبي، ثم إن القرآن الذي هو كتاب الهداية معصوم من كل خطأ، فلا بد لحافظه ومفسره ومبيّنه أن يكون معصوماً، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي أمرتنا أن نعتصم بحبل الله تعالى وقالت:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^١.

فلو لم يكن الحبل معصوماً لما طلبت الآية الاعتصام به، ونحن نعلم أن القرآن الناطق هو الإمام فلا بد له أن يكون معصوماً.

وإلى ذلك أيضاً أشارت الآيات القرآنية في قصة الطوفان وسفينة نوح عليه السلام وبيّنت أن السفينة هي المكان الوحيد للنجاة وكل ما سواها لا يعصم من الغرق حتى الجبل بشموخه وصلابته، فإنه لا يستطيع أن يحمي ابن النبي نوح عليه السلام الذي التجأ إليه^٢، ففي هذا دلالة واضحة على عصمة السفينة ومن يركبها ينجو ومن يتخلف عنها يغرق ويهوى، ولوجود مناسبة وتشابه بين سفينة نوح عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام نرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمثل أهل بيته بسفينة نوح ويأمر الأمة في مواطن عديدة بالتمسك بهم حيث أشرت إلى ما يقارب أربعين وجهاً بين آية السفينة وحديث السفينة^٣ وهو قول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله في حقهم: «مثل

^١ آل عمران: ١٠٣.

^٢ إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة: (قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَمَ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود: ٤٣).

^٣ جاء بيان ذلك في (الإمام الحسين (عليه السلام) في عرش الله) فراجع.

أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى^١، فالعصمة الإلهية إذن تتجلى في النبي الأكرم ﷺ ثم تتجلى في الوصي من بعده ﷺ، وهذه العصمة عصمة ذاتية كلية، فكما تتجلى في النبي ﷺ تتجلى أيضاً في خلفاء النبي ﷺ الاثني عشر ﷺ الذين كلهم من قريش كما ورد في الصحيحين^٢، ولهذا العصمة النبوية والولوية جامع ألا وهي فاطمة الزهراء ﷺ، فهي جامعة للنور النبوي والنور العلوي، فلذا يعبر عنها بالصديقة الكبرى ويعبر عنها بعصمة الله تعالى، لأنها جمعت بين العصمتين، ثم إن هذه العصمة منحها الله تعالى لعباده ناشئة عن اختبار وامتحان فامتحن الله تعالى الأنبياء بأن شرط عليهم العلم والزهد في هذه الدنيا الدنيّة، فشرطوا له ذلك، وعلم منهم الوفاء فقبلهم وقربهم إليه، وهذا ما أشار إليه الإمام في الدعاء، حيث يقول: «بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنيّة وزخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العليّ والثناء الجليّ»^٣.

إذن عصمتهم الله تعالى بعد اختباره لهم في العوالم السابقة - كعالم الجبروت والملكوت والأرواح والمثال - على هذا العالم الناسوتي وهكذا بالنسبة لفاطمة

^١ السواعق: ١٣٥، مستدرك الحاكم، الجزء ٣، الطبراني - المراجعات: ١٧.

^٢ روى البخاري عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: كنا اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: كلهم من قريش (صحيح البخاري ٩: ٨١)، وفي صحيح مسلم: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» (صحيح مسلم ٦: ٤).

^٣ مفاتيح الجنان، دعاء الندبة: ٦٠٦.

الزهراء عليها السلام اختبرها الله تعالى بالصبر كما ورد في زيارتها يوم الأحد: «السلام عليك يا ممتحنة، امتحنك الذي خلقك قبل أن يخلقك، وكنت لما امتحنك به صابرة»^١، فإذن اختبرها الله تعالى بالصبر الذي هو أساس الأخلاق ولم يختبرها بالزهد، لأنّ الزهد فرع من فروع الأخلاق. فلو سأل سائل: لمّ اختبر الله تعالى أنبيائه بالزهد؟ فالجواب: إنّ الزهد في هذا الدنيا يؤهل النبيّ لممارسة وظيفته التي بعث من أجلها، ألا وهي هداية الناس، فلا يكون غير الزاهد في الدنيا له القدرة على دعوة الناس للآخرة، فزهد الأنبياء يؤهلهم للخوض في المجتمعات وعدم التلوّث بالمحيط الكافر، والبيئة المتلوّثة بالشرك والمعاصي.

نكتة أخلاقية:

إنّ العلماء ورثة الأنبياء كما ورد في الأخبار الشريفة، وللنبيّ أكثر من عشرين مقاماً ومن هذه المقامات مقام الهداية والحكومة والزهد، ولهذا فإنّ كلّ نبيّ زاهد حتّى النبيّ سليمان عليه السلام الذي ملك الدنيا بأسرها، لأنّ الزهد جمع في كلمتين كما في القرآن الكريم:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^٢.

فإذا قلنا إنّ العالم يرث النبيّ، فلا بدّ أن يكون زاهداً بالإضافة إلى علمه، وهذه اللابديّة أخلاقية وليست شرعيّة، لأنّ الزاهد يحكم قلوب الناس، فلهذا حكم الأنبياء على قلوب المؤمنين به، وهكذا العالم الرباني فإنّه يحكم على قلوب

^١ مفاتيح الجنان: ٩٦، زيارة فاطمة الزهراء يوم الأحد.

^٢ الحديد: ٢٣.

المؤمنين إذا كان زاهداً ورعاً تقيّاً، فإذا كان الزهد شرطاً للنبوّة في عالم الذرّ فهو شرط للعلماء في هذا العالم الناسوتي.

فإذن تبني عصمة الأنبياء الذاتية الكليّة الواجبة على العلم والزهد، وأمّا النبيّ الخاتم ﷺ وأهل بيته ابنتت عصمتهم على العلم والصبر.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^١.

الفرق بين العصمتين:

أقول: إنّ هناك فرق بين عصمة الأنبياء السابقين لنبينا ﷺ وبين عصمة خاتم الأنبياء وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، ولكن هذا الفرق من حيث المبادئ والنتيجة، أي أنّ عصمة الأنبياء يصدر معها ترك الأولى^٢، ولكن عصمة النبيّ ﷺ وأهل بيته لا يصدر معها ترك الأولى، كما يلاحظ ذلك في قصة آدم وداود عليهما السلام^٣، إلا أنّ ترك الأولى لا يضرّ بالعصمة.

^١ السجدة: ٢٤.

^٢ مراده من ترك الأولى هو أنّ الأولى للإنسان أن يفعل كذا لأنّه في مصلحته ولائق بحاله ولكنّه لو لم يفعل فيسمّى تارك للأولى، وترك ما هو أولى من غيره ليس بمعصية لأنّه مخالفة لأمر إرشادي وليس لأمر مولوي أي أمر واجب.

^٣ في قصة آدم (عليه السلام) عندما أكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عنها فكان الأولى أي الأحسن أن لا يأكل منها ولكنّه خالف الأمر الإرشادي وأكل وهذا ما ذكرته الآيات القرآنية، وقصة داود (عليه السلام) الذي كان الأولى به أن يستمع إلى أصحاب الدعوى على حدّ سواء ولا يسمع أحدهما ويترك الآخر ولكنّه استمع إلى أحدهما دون الآخر، وهذا مذكور في الآيات القرآنية.

ثم إنّ العصمة التي تبنتني على الصبر تجعل صاحبها على درجة من اليقين بحيث لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً بينما نرى أنّ إبراهيم الخليل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب من ربّه أن يرى ما يطمئنّ به القلب، وهذا لأنّ عصمته بنيت على العلم والزهد، في حين أنّ أمير المؤمنين علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يطلب ذلك من ربّه لأنّ صبره أساس الأخلاق، واليقين جزء من الأخلاق، إنّ الزهد والتقوى جنديان من جنود العقل وحبّ الدنيا من جنود الجهل كما هو مبين في محلّه^١.

فلا بدّ للعاقل من الاتصاف بالزهد والتقوى وباقي الصفات التي أعدها الله من جنود العقل، والصبر أساس لكلّ هذه الجنود، كما عند علماء الأخلاق والعرفان أنّ مراحل التهذيب عبارة عن التخلية والتحلية والتجلية، وكلّها تبنتني على الصبر.

فبالصبر لم يصدر من عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ترك الأولى، فلا يقال لمثله عَلَيْهِ السَّلَامُ : كان الأولى له أن يفعل كذا في سياسته أو اقتصاده، وأعماله وسلوكه، وهكذا كان أولاده المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالعصمة الذاتية المبتنية على العلم التام اللدني وعلى الصبر. فإذا عرفنا أنّ العصمة التي عند النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عصمة ذاتية، أي ذاتاً عصمهم الله من كلّ شين ونقص وذنّب وخطأ ونسيان وحتّى ترك الأولى في النبيّ محمّد وآله الطاهرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذلك باختبار وامتحان منه سبحانه في العوالم السابقة، فأعطاهم الله العصمة، فإذا عرفنا هذا، فإنّ التي عند زينب وأمّثال زينب

^١ ذكر أهل البيت (عليهم السلام) أنّ للعقل جنوداً وللجهل جنوداً، وهذا مفصّل في أصول الكافي باب العقل والجهل، فراجع.

الذين تربّوا في أحضان النبوة والإمامة^١ عصمة أفعالية أي لم يرتكبوا الذنب في أفعالهم من حين ولادتهم وحتى حين وفاتهم، فعصمتهم هذه تسمى بالعصمة الأفعالية أو الكسبية وأنها الجزئية وليست عصمة ذاتية فلاتجب عليهم عقلا، لأنّ العصمة الذاتية مختصة بالأنبياء والأئمة وفاطمة عليها السلام.

ثمّ لا بأس من أجل توضيح العصمة الذاتية والعصمة الأفعالية والفرق بينهما أذكر هذا المثل الطّبي، ولا يخفى أنّ المثل كما يقال (يقرب من جهة ويبعد من ألف جهة) وأنّه لا مناقشة في الأمثال، فالمقصود وهو تقريب المعقول بأمر محسوس.

ففي الطبّ العصري يلقح الأطفال منذ الصغر بتلقيح عدم الشلل، فمن يُلّقح - من قبل الأبوين مثلا - في صغره فإنّه يعصم من الشلل، حتى ولو وقع في محيط غير صحّي، فكأنّه يعصم من اليوم الأوّل على عدم التلوّث بالشلل، ومن لم يُلّقح فإنّه يمكن أن لا يتلوّث أيضاً إلاّ أنّه هو بأفعاله ووقايته يتعد عن البيئة الملوّثة فينجو من الشلل أيضاً، إلاّ أنّه بأفعاله، لا بتلقيح الطيب والوالدين.

فالعصمة الذاتية تلقيح إلهي للأنبياء والأئمة الأطهار بعد اختبارهم في العوالم السابقة، ونجاحهم في الامتحانات الإلهية، كنجاحهم في الدنيا، كما ابتلي إبراهيم الخليل بكلمات فآتمهن.

وأما العصمة الأفعالية فتلقيح في الأفعال بأن يتقي الذنوب وأن لا يتلوّث بها حفظاً لبقاء سلامته. وكلاهما بالاختيار والاختبار، فلا يقال: لو كانت العصمة

^١ من أمثال زينب الكبرى الذين تربّوا في أحضان النبوة أو الإمامة كأبي الفضل العباس وعليّ الأكبر وفاطمة بنت موسى بن جعفر سلام الله عليهم وغيرهم.

ذاتية، فلا فضل لمن أتصف بها. ثم العصمة الذاتية كلية تعمّ العصمة عن الذنوب والخطأ والنسيان وما يشين الإنسان، بخلاف الأفعالية فإنّها العصمة عن الذنوب والمعاصي، وأمّا القضايا الاجتماعية أو الاقتصادية فربما يخطأ فإنه غير معصوم.

ثمّ العصمة الذاتية للأنبياء واجبة عقلا ونقلا، أي لا بدّ منها. ويدلّ على ذلك الأدلّة العقلية، كعدم الاعتماد على قول من لم يكن معصوماً، والأدلّة النقلية من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كآيتي التطهير والولاية وحديث الثقلين والسفينة، وأمّا العصمة الأفعالية فلم تكن ضرورية، وبهذا ربما يصدر من غير المعصوم ما يتنافى مع العصمة الذاتية.

والعصمة الذاتية المطلقة إنّما تكون بنصّ من الله سبحانه كما يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «الإمام منّا لا يكون إلّا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلق لتعرف، ولذلك لا يكون إلّا منصوفاً»^١.

وكون النبيّ والعترة الطاهرة يمتازون بالعصمة الذاتية باعتبار علمهم اللدني الخاصّ من غير كسب متعارف، كما في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^٢.

فاليقين عند الإمام المعصوم عليه السلام يختلف عن العلوم المتعارفة التي عند الناس، فيؤيد النبيّ والإمام عليهما السلام بروح القدس.

في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر، إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان

^١ معاني الأخبار: ١٣٢.

^٢ السجدة: ٢٤.

وروح الحياة وروح القوة وروح الشهوة. فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى. ثم قال: يا جابر، إنّ هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان، إلا روح القدس فإنّها لا تلهو ولا تلعب^١.

وفي صحيح زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^٢، فقال أبو جعفر عليه السلام: منذ أنزل الله ذلك الروح على نبيه صلى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا^٣.

وفي صحيح أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٤، قال: خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة وهو من الملكوت^٥.

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة، ليست بملك لم تكن مع أحد ممّن مضى إلاّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي مع الأئمة منّا، تسدّدهم وتوفّقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزّ وجلّ^٦.

^١ الكافي ١: ٢٧٢.

^٢ الشورى: ٥٢.

^٣ بصائر الدرجات: ٤٥٧.

^٤ الإسراء: ٨٥.

^٥ الكافي ١: ٢٧٣.

^٦ بحار الأنوار ٢٥: ٤٨.

فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول الله وهي مع الأئمة منّا» يدلّ على أنّ علمهم وفضلهم وعصمتهم يختلف عمّا سبق وعمّا لحق، فإنّه يختصّ بهم، وإنّهم أفضل الخلق، ولمثل هذه العصمة الأخصّ نقول بأنّهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يصدر منهم ترك الأولى، بخلاف بقية الأنبياء والأوصياء، فإنّه لهم عصمة الخاصّ، وعند زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ عصمة العامّ، وما عند غيرها عصمة الأعمّ.

ومعنى العصمة في الأنبياء والأوصياء: لطف إلهي خاصّ باعتبار القوّة النورية الملكوتية الراسخة، فتعصم الإنسان في حياته.

فالنبيّ والإمام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهما العلم الخاصّ وبطريق خاصّ يمنح صاحبه ملكة العصمة الخاصّة والمطلقة بإذن الله تعالى. فيكون الأسوة والقدوة المطلقة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^١، ثمّ الأمثل فالأمثل بمقدار ما عندهم من العلم والعصمة، ولمثل هذا نقول: إنّ زينب الكبرى عَلَيْهَا السَّلَامُ هي من الأسوة والقدوة أيضاً.

ثمّ بهذه العصمة الكلية تجب الطاعة المطلقة، كما تجب المودّة والمحبة.

قال أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إنّما الطاعة لله عزّ وجلّ ولرسوله ولولاه

الأمر، وإنّما أمر بطاعة أولي الأمر لأنّهم معصومون مطهرون لا يأمرؤن بمعصيته»^٢.

وقال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : «الأنبياء وأوصيائهم لا ذنوب لهم لأنّهم

^١ الأحزاب: ٢١.

^٢ بحار الأنوار ٢٥: ٢٠٠.

معصومون مطهرون»^١.

وزبدة المخاض: يبدو لي من خلال المطالعة والمراجعة إلى مباحث العصمة في الكتاب والسنة وعبائر الفلاسفة وعلماء الكلام، إنما العصمة من الكلّي التشكيكي فلها مراتب طولية وعرضية، فبدايتها العدالة التي يشترط في كلّ مسلم وإمام جماعة: من إتيان الواجبات وترك المحرّمات وأن لا يأتي بما ينافي المروّة كما عند البعض، ونهايتها عصمة الله الكبرى التي بلا نهاية، ثمّ بينهما مراتب، فبعد عدالة إمام الجماعة كما في مذهب أهل البيت عليهم السلام، يشترط العدالة في مرجع التقليد، وعندى عدالته أعلى رتبة من عدالة إمام الجماعة، كما ذكرت تفصيل ذلك في كتاب (القول الرشيد في الاجتهاد والتقليد - المجلد الأوّل) ثمّ يأتي دور عصمة أمثال زينب الكبرى عليها السلام وهي التي نسمّيها بالعصمة الأفعالية العالية، ثمّ عصمة الأنبياء والأوصياء وهي العصمة الذاتية الكلّية المطلقة الواجبة، ثمّ عصمة الأربعة عشر معصوم محمّد والأئمة الاثني عشر وفاطمة الزهراء عليها السلام، والكلّ يشترك بالطهارة وبعدم ارتكاب الذنوب والمعاصي، إلاّ أنّه كلّ واحد يمتاز عن الآخر بخصائص ومميّزات، كعصمة الأربعة عشر معصوم عليهم السلام ليس فيها ترك الأولى، بخلاف عصمة الأنبياء فإنّه لا يضرّها ترك الأولى، وتفصيل الكلام يطلب من محله.

سؤال:

لو سئل من أين لنا أن نعلم بعصمة زينب عليها السلام ونحكم بأنّها معصومة

بالعصمة الأفعالية؟

^١ المصدر ٢٥: ١٩٩.

الجواب:

نعرف ذلك من خلال سيرتها وما ورد في حقها كما في غيرها، وأذكر لكم شاهداً على ذلك، ما ورد في حق فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنها كانت في سنّ أربع أو خمس سنين عندما جاء بعض الشيعة إلى دار الإمام عليه السلام ليسألوا عن بعض المسائل إلا أنهم لم يجدوا الإمام عليه السلام ، فبعد طرق الباب خرجت لهم زوجة الإمام عليه السلام وأخبرتهم بعدم وجود الإمام عليه السلام، فقالوا لها: إننا جئنا من مكان بعيد ولا بدّ لنا من أجوبة هذه المسائل، فكيف بنا ومن نسأل؟ فقالت لهم زوجة الإمام عليه السلام : هنا في البيت فاطمة بنت الإمام عليه السلام ، قالوا: إذن نسأل فاطمة، ولما دخلوا عليها وسألوها أجابتهم بكلّ الأجوبة وبتمامها، فأخذوا أجوبتهم وذهبوا، ولما جاء الإمام حدثته زوجته بكلّ ما جرى وقالت: إنّ فاطمة أجابت بكذا وكذا، فقال عند ذلك: إنّ فاطمة حكمت بحكم الله سبحانه وتعالى، وهكذا زينب عليها السلام كان عمرها سنتين كما ورد في الرواية وهي جالسة في حجر أبيها أمير المؤمنين عليه السلام فقال لها أبوها: بنية قولي واحد، فقالت: واحد، ثمّ قال لها: قولي اثنين، قالت: لا أقول يا أبتاه، قال: بنيتي لم لا تقولين اثنين؟ قالت: لساني جرى على الواحد ولا يجري على الاثنين. فمن تلك القصة الأولى وهذه القصة الثانية نفهم أنّ السّيدتين الجليلتين عالمتان غير معلّمتين، كما أنّهما تربيّتا تربية نبوية علوية، ومثل هذه التربية لا تنتج إلاّ عصمة أفعالية، ثمّ عندما نطلّع على حالة زينب عليها السلام وهي تصليّ صلاة الليل في ليلة الحادي عشر من المحرمّ في تلك الليلة التي تهدّ الجبال بمصيّبتها نلمس من ذلك مدى علم زينب وعصمة زينب عليها السلام ، وهذا ليس بعجيب فإنّ مثل هذه العصمة ثبتت لمن هو أقلّ من مقام زينب عليها السلام التي قال في حقها الإمام زين العابدين عليه السلام : «عمّة، أنت بحمد الله

عالمة غير معلّمة، وفهمة غير مفهّمة» أي أنّ معلّمك هو ربّ العالمين فأنت لست بحاجة إلى معلّم آخر، فإنّه تعالى أدّبك فأحسن تأديبك، فهي عالمة لأنها في أعلى مراحل التقوى وكانت مصداقاً واضحاً للآية الكريمة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾^١

وهي صابرة لم يسبقها في ذلك إلا أمّها فاطمة عليها السلام فلكلّ هذا هي معصومة بالعصمة الأفعالية.

وكما قلت لكم إنّ هذه العصمة ثابتة لغيرها ممّن هو أدنى منها مرتبةً كسيدنا الأستاذ النجفي المرعشي قدس سرّه ، فإنّه قال لي يوماً وقد أقسم بفاطمة الزهراء عليها السلام أنّه ما فعل شيئاً هوته نفسه قط، أي كان (مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه) منذ اليوم الأوّل، فلهذا (على العوام أن يقلّدوه) كما ورد في الحديث الشريف، وكذلك السيّد الخوانساري قدس سرّه الذي قضى صلاته طيلة حياته ثلاث مرّات، مع أنّه من مراجع الدين وما كان ذلك إلا لشدة احتياطه، فمثل هذه الأفعال تدلّ على عصمتها الأفعالية.

وهذا ما أكّده الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «عجبت لمن يحبّ الله كيف يعصيه»، فالمحبّ لله تعالى لا يعصي الله تعالى ولا يفعل ما يؤثّر على هذه العلاقة مع ربّه ومولاه ومحبوبه. كما أنّه ورد في الحديث الشريف: «ثمرّة العلم العصمة»، فكلّما ازداد الإنسان علماً نافعاً وعملاً صالحاً ازداد عصمة وورعاً عن المعاصي والذنوب والآثام والقبائح، وهناك شواهد كثيرة أذكر منها ذلك الرجل المتواضع الذي لا يقرأ ولا يكتب أخي الحاجّ محمّد علي مشهدي فإنّه كان له

^١ البقرة: ٢٨٢.

شرف اللقاء بالإمام الحجّة عليه السلام تكراراً ولمّا سألته عن مؤهلاته لذلك قال: إنّه ما كذب يوماً، ولا اتّهم أحداً، ولا استغاب شخصاً، بل بمقدار ما عرف من دينه لم يرتكب ذنباً منذ بلوغه، فالمعرفة والحبّ يستوجبان العمل والقرب، حتّى يصل المرء إلى العصمة في أفعاله، والتي نسمّيها بالعصمة الأفعالية، ولا بأس أن أذكر شاهداً آخر لتأثير حبّ الله في الحياة وفي أداء الواجبات، أذكر أنّي كنت راكباً في القطار مع بعض الشباب وكانوا من الجيش فلمّا وقف القطار ونزلنا لأداء الصلاة كان أحدهم لا يؤدّي الصلاة وبمجرّد أن سألته: هل تحبّ الله تعالى؟ قال: نعم، قلت له: اذهب وتكلّم مع من تحبّ، فقام فعلاً وذهب للصلاة، وغير ذلك من الشواهد ويكفي ما نراه من طاعة العاشق لمعشوقه في العشق المجازي، مع أنّ الحبّ بينهما شهواني، فكيف إذا كان الحبّ الإلهي؟

فلذا من عرف فإنّه لا يعصيه، ومن عرف زينب فإنّه يتأدّب في حضرتها بخشوع، فبالحبّ تكون الطاعة، وحبّ مجنون ليلي كان مجازياً، ومن طريف ما يحكى أنّه كتب على أرض الصحراء اسم ليلي، فلمّا سئل عن سبب ذلك؟ أجابهم: أسّلي قلبي بذكرى ليلي، وهكذا يفعل الحبّ المجازي بأهله، فكيف بالعشق الحقيقي وهو عشق الله سبحانه، ومن أنس به استوحش من الناس، ولهج لسانه بذكره:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١

فإذن إذا علمنا وزهدنا وصبرنا أطعنا حقّاً، وزادنا الله عصمةً، ومثل زينب الحوراء عليها السلام التي وصلت إلى مقام الفناء في الله كما يشهد لها قولها في جواب

ابن زياد اللعين: كيف رأيت صنع الله؟ فقالت عليها السلام: «ما رأيت إلا جميلاً». ولا يقول هذا إلا العارف الفاني في إرادة الله وحبّه، فترى شهادة إخوتها الكرام من الله صنعاً جميلاً، وإن كان من بني أمية ويزيد الطاغية ظلماً وعدواناً، فمثلها كيف لا تكون معصومة؟

كيف لا تكون معصومة وقد صبرت حتى عجز الصبر من صبرها، وهل يمكن لغيرها أن ترفع جسد أخيها الإمام الحسين في عصر يوم عاشوراء وهو مقطّع بالسيوف والرماح والسهام وتقول: اللهم تقبل هذا القربان من آل محمد؟ كيف لا تكون معصومة وإمام زمانها زين العابدين عليه السلام يقول في حقها: أنت بحمد الله عالمة غير معلّمة؟ فلا ريب ولا شك في أنها معصومة، إلا أنّ عصمتها عصمة أفعالية تختلف عن عصمة أمّها فاطمة الزهراء عليها السلام، تختلف عن عصمة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام.

اللهم نسألك بعصمة الأنبياء والأولياء بعصمة زينب الحوراء اغفر لنا فيما مضى من حياتنا واعصمنا فيما بقى من عمرنا، آمين رب العالمين.

فصل فى الأسئلة^١

سؤال: إنَّ حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» صدر من سقراط قبل

ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، فما هو رأي سماحتكم؟

الجواب:

إنَّ هذا الحديث ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام ولا ضير أن يكون من قبل، لأنَّ منبع العلم واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فربما هذا الحديث وصل ممَّن سبق سقراط من الأنبياء عليهم السلام باعتبار أنَّ معرفة النفس هي بداية الفلسفة، فلذا يبحث الفيلسوف عن مثل هذه الروايات الواردة عن الأنبياء عليهم السلام وكلَّ العلوم الصحيحة واردة عنهم عليهم السلام فلا مانع أن يكون سقراط أخذها عن الأنبياء عليهم السلام وهو يوافق ما موجود عند أهل البيت عليهم السلام، فإنَّهم أعرف بعلوم الأوَّلين والآخرين.

١ - سؤال: هل إنَّ سقراط من الأنبياء عليهم السلام ؟

^١ لقد كان المجال مفتوحاً للسؤال والجواب بعد كلِّ محاضرة، وقد أجاب سيِّدنا الأستاذ دام ظلّه في رحلته الشاميّة هذه عن أكثر من خمسمائة سؤال، آثرنا أن نحرّر ما سجّله لنا الكاسيت وشريط الفيديو، ونقدّمه للقراء الكرام لما فيه من الفوائد والفرائد.

الجواب:

لم يثبت ذلك، ولكن هناك من يذهب إلى هذا القول، وأريد أن أقول شيئاً عن الفلسفة، فأقول: إنّ هناك نزاع بين الفقهاء وبين المحدثين، فمنهم من ينكر الفلسفة نهائياً سيّما الفلسفة اليونانية، ومنهم من يثبت ذلك، وورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام مذمة الفلسفة كما أنّ هناك أيضاً عدم إنكار لها، كما ذكر في كتاب حديقة الشيعة المنسوب إلى المقدّس الأردبيلي عن الإمام العسكري عليه السلام كما في ذاكرتي يقول: إنّهُ سيأتي في آخر الزمان أقوام... إلى أن يقول: فإنّ علمائهم يميلون إلى الفلسفة والتصوّف، وهنا الحديث في مقام الذمّ لهما، كما أنّه ورد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام تكلم عن النفس وتقسيمها إلى رجل يهودي الذي تحدّث أمام أمير المؤمنين بكلمات فلسفية فلما سمع مقولة الإمام عليه السلام تعجّب من ذلك، وقال للإمام عليه السلام: سيدي، كأنما جمعت كلّ الفلسفة في كلامك هذا، فمن هذا نستشفّ عدم الردع عن الفلسفة بل جواز التحدّث بها، إلّا أنّني أرى إن كانت الفلسفة طريقاً إلى الله تعالى وأداة وسلاح في الردّ على الفلسفة الغربية ودحراً لأعداء الإسلام فلا بأس بذلك وربما لا بدّ منه، ولكن ليست الفلسفة هي الطريق الوحيد إلى الله تعالى.

٢ - سؤال: ما معنى الرحمن، وما معنى الرحيم؟

الجواب: الرحمن من أسماء الله سبحانه وتعالى، وبمعنى ما فيه تكامل الشيء وكلّ ما فيه تكامل الشيء فهو من رحمانية الله، كما أنّ من مصاديق رحمانيّته تعالى الهداية العامّة، والرزق فإنّه عامّ يشمل الكافر والمؤمن وكلّ ما يشمل الخلق فهو الرحمة الرحمانية، وهناك الرحمة الخاصّة التي هي قريبة من

المحسنين ومختصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذا معنى الرحيم.

٣ - سؤال: هل هناك علاقة بين التشيع والتصوف، ويرون أن مصادر أعلام الصوفية هم أهل البيت عليهم السلام سيما أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء، كما أن المتصوفة يؤمنون بالولاية، ولكن لا يؤمنون بالبراءة، فما هو رأي سماحتكم؟
الجواب:

التصوف علم من العلوم ومسلك من المسالك التي هي في قبال الفلسفة، فالتصوف يعبر عنه بالعرفان، والعرفاء هم المتصوفة، وهم يقولون: إن للنبي صلى الله عليه وآله ثلاث حالات وهي: أقواله وأفعاله وحالاته، فأقواله عبارة عن الشريعة، وأفعاله عبارة عن الطريقة، وحالاته عبارة عن الحقيقة، فالشريعة نأخذها من الفقهاء، والطريقة نأخذها من الأقطاب؛ لأن كل صوفي عنده قطب، وهذه الأقطاب تتصل بقطب الأقطاب ألا وهو أمير المؤمنين عليه السلام، فالسلسلة تنحدر منه عليه السلام إلى الإمام الحسن إلى أن تصل إلى الإمام الرضا عليه السلام ثم إلى معروف الكرخي وهكذا إلى يومنا هذا.

فهم يأخذون أفعالهم وحالاتهم من أقطابهم، فمثلا عندما يريد أن يأخذ ذكراً لمدة أربعين يوماً يأخذه من قطبه، كما أن لديهم شكل هرمي في درجاتهم، أولهم القطب ثم المرید ثم الفقير، وهكذا. وهذه المعاني موجودة عند المتصوفة، كما أن الصوفية تنقسم إلى أكثر من متبي فرقة، كالصوفية الشاذلية في الجزائر والقادرية في العراق وغيرها من فرق التصوف السني، وأما صوفية الشيعة كالصوفية الذهبية الموجودة في شيراز وغيرها في المدن الإيرانية الأخرى، وسموا بالصوفية لأن أقطابهم يلبسون الصوف أو أنها مأخوذة من صوفيا بمعنى الحكمة التي عند الفلاسفة أي ما يشابه الحكمة أو في قبال قول الفلاسفة، وأما

مرام الصوفيّة فإن كان التصوّف بمعنى تهذيب النفس وتربيتها فهذا حقّ، وإن كان غير ذلك فقد وردت أحاديث كثيرة في مذمتهم، راجع كلمة (صوف) من سفينة البحار للمحقّق القمّي قدس سرّه، أمّا بالنسبة إلى البراءة والولاية فهذا أمر مهمّ جداً لا بدّ من التكلّم فيه، فنقول: إنّ أمير المؤمنين رُوحِي فداه يقول: «عجبت لمن يدّعي حبّي كيف يحبّ عدوّي»، فهذا أمر مستحيل لأنّه ما جعل الله تعالى في جوف من قلبين يحبّني ويحبّ عدوّي الذي ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية، ولا بدّ أن نقول إنّ لكلّ ولاء من براءة سابقة عليه، الفلاح الذي يريد زرع الأرض لا بدّ له من رفع الموانع لكي تعطي الأرض زرعاً جيّداً، فكذلك بالنسبة للقلب لا بدّ أن يخرج منه محبّة أعداء الله تعالى وأعداء رسوله وأوليائه لتحلّ مكانها محبّة الله تعالى ورسوله وأوليائه، وبكلمة أخرى إنّ لنا شعوراً وشعاراً، فالشعور الولائي شعاره (الصلاة على محمّد وآل محمّد)، والشعور البرائتي شعاره اللعن لأعداء الله تعالى ولأعداء رسوله وأهل البيت عليهم السلام، فكما يتقرّب الإنسان بالصلاة يتقرّب باللعن، فإنّما لا يمكن التحليق في عالم المعرفة والقربة إلى الله إلّا بجناحين وهما الصلاة واللعن.

٤ - سؤال: ما هو رأي أهل البيت عليهم السلام في المقولة التي تقول إنّ البحث عن

الله تعالى بحسب الطاقة البشرية؟

الجواب:

هذه المقولة لم تكن في مذهب أهل البيت عليهم السلام وإنّما هي مقولة فلسفية وليس قولهم البحث عن الله تعالى، بل البحث عن الموجود لأنّ الموجود هو موضوع الفلسفة كما ورد ذلك في بداية ونهاية الحكمة للسيد الطباطبائي عند تعرّضه إلى تعريف الفلسفة. فيقول: موضوع الفلسفة هو الموجود بما هو موجود

حسب الطاقة البشرية. وهذه العبارة (حسب الطاقة البشرية) مذكورة في الأسفار لصدر المتألهين عليه الرحمة ولغيره، فليس لهذا القول علاقة بأهل البيت عليهم السلام.

٥ - سؤال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: علماء أمتي كأنياء بني إسرائيل، فما

المقصود بأنبياء بني إسرائيل، هل هم الأنبياء المرسلون أم ماذا؟

الجواب:

الأنبياء على طبقات كما في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، فمنهم من كان نبياً نفسه فقط، ومنهم لأسرته، ومنهم لعشيرته، ومنهم نبياً عالمي أي ذو رسالة عالمية، وهذه الرتبة الأخيرة مختصة بأنبياء أولي العزم الخمسة الذين كانت رسالتهم عالمية في عصرهم كما في رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، أي أن على جميع من في الكرة الأرضية أن يؤمنوا بصاحب الرسالة العالمية، فمثلا رسالة عيسى عليه السلام رسالة عالمية، فعندما جاء بها عيسى عليه السلام كان على جميع الناس أن يؤمنوا بها إلى أن جاءت رسالة سيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله وهي الرسالة الإسلامية فنسخت الديانة المسيحية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^١ و ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^٢.

وعليه لا بدّ - عقلا ونقلا - أن يدخل جميع الخلق في الديانة الإسلامية حيث إنّها خاتمة الأديان، فصارت من حيث الزمن إلى يوم القيامة وهذا ما يؤيده الحديث الشريف: «حلال محمد صلى الله عليه وآله حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد صلى الله عليه وآله حرام إلى يوم القيامة».

^١ آل عمران: ١٩.

^٢ آل عمران: ٨٥.

٦ - سؤال: قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^١، وينطلق

البعض من هذه الآية على قيمومية الرجال على النساء مطلقاً، فلذلك إذا كانت المرأة معصومة كالزهراء عليها السلام فلا بدّ أن يكون زوجها معصوماً وكفوواً لها حتى تتمّ القيمومة، وعلى هذا إذا كانت السيّدة زينب عليها السلام لا تعرف بمعرفة كمالية فلماذا زوجها أمير المؤمنين من عبد الله بن جعفر؟

الجواب:

إنّ ما جاء في الآية الشريفة من باب المناسبة بين الموضوع والحكم كما في الفقه، حيث يقول الفقهاء لا بدّ من مناسبة بين الموضوع والحكم كما عند الفلاسفة فإنهم يقولون: لا بدّ من سنخية بين العلة والمعلول، فالآية حكمت بأنّ الرجال قوامون على النساء، فالموضوع هو الرجال والنساء والحكم هو القيمومية، ومفهوم القيمومية له مصاديق متعدّدة، منها الوصاية كوصاية وقيمومية الوصي على الطفل، أو قيمومية الإمام على الأمة أو قيمومية المعلم على التلميذ، فكلّ موضوع له حكم يناسبه. وفي مقامنا تكون القيمومية في دائرة الزوجية وليس على نحو عامّ أيّ ليس أنّ كلّ رجل قائم على كلّ امرأة، بل المراد أنّ كلّ زوج قائم على زوجته فالقيمومية بسبب الزوجية، وقيمومية الرجل في نطاق الأسرة وإنّما شرّع ذلك لأنّ الله تعالى خلق الإنسان وهو عارف بمكوناته وذاته.

وأنا تعرّضت لهذا البحث الاجتماعي في شهر رمضان في قم المقدّسة

بالتفصيل^٢، فقلت:

^١ النساء: ٣٤.

^٢ لقد ذكر الأستاذ تفصيل ذلك في كتاب (تربية الأسرة على ضوء القرآن والعترّة)، فراجع.

إنّ الرجل والمرأة كلاهما ناقصان، وكلّ واحد منهما له كمال يمتاز به عن الآخر، وحيث إنّ الله تعالى خلق الكون كلّ بزواج تكويني، والبينة الشرعية تكون بشاهدين عدلين، فكانت البينة التكوينية كذلك، فخلق الله من كلّ شيء زوجين لتكون بينة على وحدانيته، فهذه الخلقة فيها دلالة وبينة على أنّ الله تعالى واحد أحد، وهذه البينة بينة تكوئية على مدعى الله تعالى بأنه واحد أحد، فالرجل والمرأة من الزوجية التكوئية وهما يتصفان بالانقص كما أسلفنا فأراد الله تعالى لهما أن يتكاملا ببعضهما في ميادين كثيرة، ومن هذه الميادين ميدان العقل والعاطفة، فإنّ العقل في الرجال أقوى ممّا عند النساء، والعاطفة أكثر ممّا عند الرجال على نحو الغالبية والجوهرية والأصالة، ولهذا جعل الرجل قائماً على المرأة عند الزوجية وليس معنى كلامنا هذا أنّ المرأة ناقصة العقل أي مجنونة أو قاصرة، وإنّما مرادنا أنّ الجانب العاطفي عندها أكثر من التعقل ولذلك في الأمور التي يحتاج المجتمع بها إلى التعقل تسند الوظيفة إلى الرجل كما في (القضاء والمرجعية) فقولنا هذا لا دلالة فيه على الانتقاص من المرأة بل فيه بيان خلقة المرأة وبيان ما يناسبها من وظيفة، وإلا لو كان كلامنا نافياً لعقل المرأة فكيف يعتبرها الإسلام مكلفة بالتكاليف الشرعية عند بلوغها تسع سنين، فتكون مكلفة قبل الرجل ولوجود هذا الفارق في التعقل صار الرجل قائماً على المرأة عندما يرتبطون برابطة الزوجية وتكوين الأسرة، وكذلك المرأة لها من العاطفة ما ليس للرجل فلذلك تقوم بما لا يستطيع الرجل القيام به، إذن تكوين الأسرة يحتاج إلى تعقل وعاطفة وهذا لا يعني أنّ المرأة تنقص عن الرجل مطلقاً بل ربما تكون المرأة يضرب بها المثال للمؤمنين وهم رجال كما في قصة آسيا امرأة فرعون حيث ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين.

وأما بالنسبة لزینب عليها السلام فإنها معصومة ولكن عبد الله بن جعفر لم يكن أكفأ منه لزینب حيث بينهم نسب وحسب وهو ابن عمها وهذا يكفي في نظر العرف آنذاك مع ما لعبد الله بن جعفر من العلم والتربية حيث إنه تربى في أحضان النبوة والإمامة فلهذا لا تنافي بين كون عبد الله بن جعفر قائم على زينب بموجب الآية وبين عصمة زينب وعلو مقامها.

٧- سؤال: هل عصمة العلماء كعصمة زينب عليها السلام ، وهل أن للعصمة الأفعالية

مراتب؟

الجواب:

ليس عصمة العلماء كعصمة زينب عليها السلام ، لأن العصمة الأفعالية التي لزینب - سلام الله عليها - في أعلى مراتبها، حيث إن لهذه العصمة مراتب متعددة. ولكن من حيث الإمكان العقلي يمكن لغير زينب الوصول إلى رتبها، أمّا من حيث الإمكان الوقوعي لم يقع هذا، لاختلاف ظروف زينب الكبرى واختلاف مربّي زينب ومعلميها فهي تالي المعصوم عليه السلام ، كما ورد في الزيارة.

٨- سؤال: هل يلهم العالم أحياناً؟

الجواب:

نعم، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾^١.

فالعالم يمكن أن يعطيه الله تعالى من العلم الإلهامي إذا وصل إلى رتبة تؤهله لذلك، فالعالم يرزق من هذا العلم وكذلك الأولياء والأنبياء، ولكن كل

^١ البقرة: ٢٨٢.

بحسبه لأنّ لهذا العلم مراتب.

ولهذا يستحبّ قبل المطالعة أن يدعو الإنسان لكي يهبه الله علماً من عنده، وهذا ما يتّضح من الدعاء الذي يقول: «اللهمّ ارزقني فهم النبيين وحفظ المرسلين وإلهام الملائكة المقربين، ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وكثيراً ما يلهم العالم علماً لم يكن يعلمه من قبل، سيّما عند المخاصمة بين الحقّ والباطل، وهذا من المجربّات.

٩ - سؤال: ما هو الترابط بين عصمة فاطمة الزهراء وبين عصمة زينب

الكبرى؟

الجواب: الترابط اتّضح ممّا ذكرنا هو أنّ عصمة الزهراء عليها السلام عصمة ذاتية كلّية واجبة، وعصمة زينب الكبرى سلام الله عليها عصمة أفعالية جزئية ومكتسبة.

١٠ - سؤال: لو أذنب شخص ذنباً في أوّل حياته وتاب بعد ذلك ولم يقترف

ذنباً إلى أن مات، هل يعتبر هذا معصوماً أو لا؟

الجواب:

هذه عصمة أفعالية وهي ميسرة لكلّ واحد منّا، إلاّ أنّها تختلف من حيث رتبته ومن حيث السعة والضيق، وهذه أدنى من غيرها حيث يمكن أن يكون من هو معصوم عن الذنوب الكبيرة وهناك من هو معصوم عن الكبائر والصغائر، إلاّ أنّ ذلك في آخر عمره وهناك من هو معصوم من أوّل بلوغه، وهناك معصوم من أوّل حياته حتّى مماته، وهكذا قصّة السيّدين المرتضى والرضي شاهد على ذلك.

١١ - سؤال: هل يجوز السجود على النقشة الموجودة في التربة الشريفة؟

وهل يجوز السجود على تربتين إحداهما فوق الأخرى؟

الجواب:

نعم، يجوز السجود على تربتين إذا لم يكن ارتفاعهما أكثر من أربعة أصابع، وهي مختلف - عند الفقهاء - في كونها مضمومة أو مفتوحة، أمّا بالنسبة للسجود على النقشة فينقل عن السيّد البروجرديّ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ أنّه لا يصحّ ذلك، فإنّه يشكل من حيث النقش أي بالعنوان الثانوي، وتبادر إلى ذهني ربما يرد الإشكال من حيث العنوان الأوّلي وهو أنّ النقشة قد لا تفي بالسجود الصحيح الذي هو بمقدار الإبهام أو يزيد أي بمقدار الدرهم البغلي، وأيضاً تبادر الجواب في ذهني أنّه يمكن دفع هذا الإشكال وهو لو وضع الساجد جبهته فربما تملأ التجعيدات التي في جبهته تلك الفراغات التي في النقشة، فالأحوط الأوّلي أن لا يسجد على النقشة.

١٢ - سؤال: لقد عرفتم العلم بأنّه صورة الشيء في الذهن، أليس هذا

مخالفاً لتعريف أهل البيت عليهم السلام حيث عرفوه بأنّه نور؟

الجواب:

للعلم تعاريف عديدة منها التعريف المنطقي والتعريف الفلسفي، وله تعريف في علم الكلام، وتعريف آخر في الأحاديث الشريفة، وتعريف العلم بأنّه انطباع صورة الشيء في الذهن هو تعريف منطقي، ويستفاد منه في كلّ العلوم، لأنّ المنطق أداة العلوم، فلهذا يمكن تعريفه هكذا، أمّا العلم الإلهي الذي هو نور فهو بمعنى الانكشاف كما أنّ العلم بالتعريف المنطقي أيضاً انكشاف لأنّ الجهل ظلام والعلم نور وعندما يعلم الإنسان علماً أي تنور قلبه، فانكشفت له المجاهيل فلا مخالفة بينهما.

١٣ - سؤال: إذا استمرت رسالة الله تعالى إلى يوم القيامة فما معنى ختم

النبوة؟

الجواب:

النبوة والرسالة بدايتها من آدم عليه السلام ونهايتها إلى محمد صلى الله عليه وسلم الخاتم صلى الله عليه وسلم، وحيث إن رسالة الخاتم صلى الله عليه وسلم تسمى بالإسلام الذي هو بالمعنى الخاص المقابل للإسلام بالمعنى العام والذي يعنى الانقياد، جاءت الآية تقول:

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَاسِرِينَ﴾^١.

فأمرنا الله تعالى باعتناق هذا الإسلام الخاص الذي كمل بولاية أمير المؤمنين

على عليه السلام، لقوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ

الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٢.

فيبقى هذا الدين بعد أن أكمله الله تعالى وصار صالحاً للتدين به في كل

الأزمان والأعصار إلى يوم القيامة، فلكمال الرسالة السماوية السمحاء التي جاء

بها الأنبياء قد ختمت النبوة، وتبقى الرسالة الإسلامية إلى يوم القيامة، والحمد لله

الذي جعلنا من المسلمين والتمسكين بولاية أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين،

ورزقنا الله في الدنيا زيارتهم وفي الآخرة شفاعتهم وحشرنا في زميرتهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

^١ آل عمران: ٨٥

^٢ المائدة: ٣.

الفهرست

٣	المقدمة.....
٦	المحاضرة الأولى.....
٢٣	المحاضرة الثانية.....
٢٧	وقفه على المعرفة الفلسفية و العرفانية.....
٣٠	سؤال غبي.....
٣٥	المحاضرة الثالثة.....
٥١	المحاضرة الرابعة.....
٥٧	نكتة أخلاقية.....
٥٨	الفرق بين العصمتين.....
٦٩	فصل في الأسئلة.....
٨٠	الفهرست.....